



مَجْلَدُ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ

# المسكن يُعْنِي في كبار البكامل للبر



تأليف

أ.د/ محمد أبو موسى

عضو هيئة كبار العلماء

إعداد

الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء

إشراف

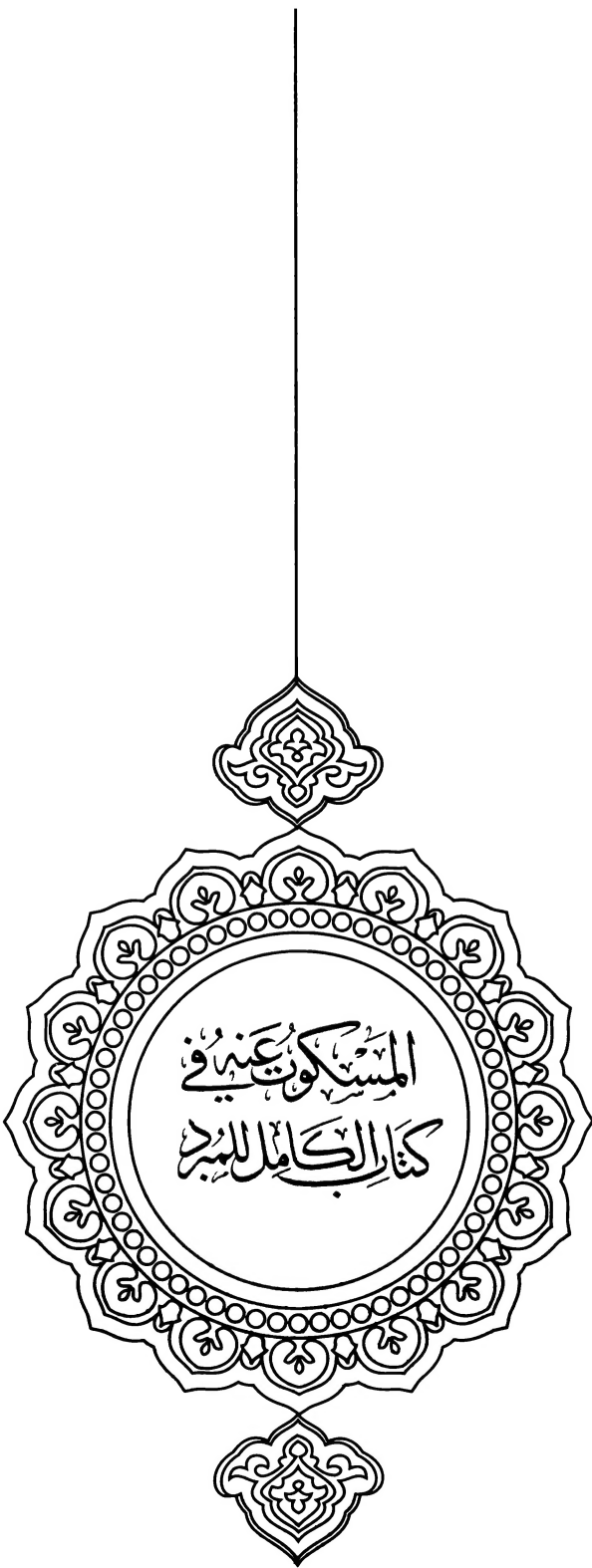
أ.د/ عباس شويمان

الأمين العام لهيئة كبار العلماء

الطبعة الأولى

لهيئة كبار العلماء

١٤٤٦ هـ / ٢٠٢٥ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الأدب الشريف  
هبة كمال العلماء

# المستكشفون بعنف كمال الملل

تأليف

أ.د/ محمد أبو موسى

عضو هيئة كبار العلماء

الطبعة الأولى

لهيئة كبار العلماء

١٤٤٦هـ / ٢٠٢٥م

فهرست الهيئة المصرية العامة  
لدار الكتب والوثائق القومية

# المستكشفون في كنز الكامل للبر

الإعداد والطباعة

إيهاب محبدي عامر

مقاس الصفحة: ١٧ × ٢٤ سم عدد الصفحات: ١٢٠ صفحة

رقم الإيداع: ٢٥٥٩٤/٢٠٢٤م

الترقيم الدولي: 978-977-205-660-6

## تقديم الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء



الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على النبي الأمي الأكرم، وعلى آله وصحبه نجوم الأمم، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الفوز والندم.  
وبعد...

فإن البلاغة بحر خضم، زاخر بالنفيس من العلوم، متماوج بشتى الفنون، فلا يبحر فيه إلا من استوى على سوقه؛ ليصل آمناً إلى جُوده، وهو صنو علم النحو الذي يقيم الألسنة، ويفتح الباب لكل ذي عقل أن يتدبر فيما يقال وما لا يقال، ويعرف تراكيب الكلام العربي الأصيل، ويميز ما هو غث مما هو سمين.

وكتاب (الكامل) لأبي العباس المبرد أحد أركان البلاغة، ودواوينها الأربعة، كما يقول ابن خلدون: «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين، وهي: أدب الكتاب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها، وفروع عنها».

والوقوف على خبايا الكامل وأسراره من أجل الأعمال العلمية؛ فندارس المنطوق به لا يستوي مع بيان المسكوت عنه، ومستخرج



اللائي ليس كبائعهما؛ ذلك أن المنطوق به تتناقله الألسن، وتستطيعه العقول على تفاوت استيعابها، وتباين أقدارها، لكن استنطاق المعاني، واستجلاء الغوامض، لا يستطيعه أي عقل، ولا يصل إلى خباياها إلا المخلصون؛ لتنجلي الحقيقة للبصائر، بما حوت الأشباه والنظائر.

ومستكشف هذه الأسرار، ومستنطق هذه المعاني في هذا الكتاب، واحد من كبار علماء الأزهر الشريف، المشهود له في جميع ربوع العلم بالأصالة والتمكُّن، والرسوخ في العلم الماتع؛ علم البلاغة، فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد محمد أبو موسى، أستاذ البلاغة، وعضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف، ولعل أبرز ما يميز عطاءه الممتد عنايته الفائقة ببناء العقول، فكم قال: «إن الحديث في العلم شيء، والحديث عن كيفية استخراج العلم شيء آخر»، وهذا ما نجده متمثلاً في هذا الكتاب؛ حيث إن الدراسات في كتاب (الكامل) للمبرد كثيرة، لكن عُنِيَ المؤلف بجلاء الأفكار فيه، وكشف الغائب بعلم الحاضر.

وهيئة كبار العلماء إذ تقوم بإخراج هذا الكتاب، لترجو أن تبني به عقولاً تخلص في طلب العلم، وتوغل في غوامضه، وتبتعد عن المكرور فيه؛ ليتصل حبل العلم المتين، ويزداد بناؤه قوةً، فبدون العقول الواعية، والهمم العالية، لا نصل إلى غاية، وليس أشرف من علوم اللغة التي بها نستجلي معاني القرآن الكريم، والسنة النبوية المشرفة.

والله يهدي إلى سواء السبيل



أمانة هيئة كبار العلماء



## ترجمة فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد محمد أبو موسى<sup>(١)</sup>



هو اللُّغويُّ الرَّصين، والبلاغيُّ المَكِين، والأزهريُّ الأصيل، تلميذُ الشُّيوخ الرَّاسخين الصَّادقين، أستاذُ العلَّماءِ العامِلين، الباذِلُ كدَّه ووكَّدَه - ومن قبلُ حياته وعُمره- في الدُّود عن ثقافة الأُمَّة والدِّفاعِ عن أصالتها، والمَانِحُ ثمرةَ فؤاده وزُبدةَ تجربته لطلَّابه، والزَّارِعُ في عقولِ الناشئة على مرِّ الأجيال حُبَّ العلم وتقديرَ جُهدِ أهله، والمرشِدُ لهم إلى سبيلِ القراءة الحَقَّةِ المُثمِّرة.. إنَّه فضيلةُ الأستاذ الدكتور/ محمد محمد أبو موسى، أستاذُ البلاغة والنقد في كلية اللُّغة العربيَّة بالقاهرة، جامعة الأزهر، عضوُ هيئةِ كبار العلماء بالأزهر الشريف، حفظه الله تعالى.

وُلِدَ فضيلةُ الأستاذ الدكتور/ محمد محمد حسين أبو موسى في ٢٠ من ربيع الآخر عام ١٣٥٦هـ، الموافق ٣٠ يونيو عام ١٩٣٧م، في قرية الزَّوامل التابعة لمركز دُسوق بمحافظة كفر الشيخ بجمهورية مصر العربيَّة.

حَفِظَ القرآنَ الكريمَ في سِنِّ مُبَكِّرة، ثم التحقَ بالأزهر الشريف وهو ابن اثنتي عشرة سنة طالبًا بمعهد دُسوق الابتدائيِّ الأزهري، الذي شغل منصب المشيخة به فضيلةُ الشيخ الكبير/ محمد الصَّادق عُرْجُون، ومنه انتقل إلى المعهدِ الثَّانويِّ بدُسوق؛ لأن نظام التعليم حينئذٍ كان مقصورًا

(١) هذه التَّرجمةُ مُختصرةٌ من تَرجمةِ الشَّيخِ التي تُنشرُ -بمشيئة الله تعالى- في الكِتَابِ الذي تُعِدُّه الأمانةُ العامَّةُ لهيئةِ كبار العلماء بالأزهر الشريف عن أعلامِ الهيئةِ المُعاصرين.



على المرحلتين الابتدائية والثانوية، وفي خلال هذه السنوات تشبعت رُوح الشيخ بالكفاح الوطني؛ فكان يخرج مع زملائه في المعهد في مظاهرات مناهضة للاحتلال الإنجليزي.

انتقل فضيلة الشيخ / محمد أبو موسى إلى القاهرة ليلتحق بكلية اللغة العربية، وتلمذ فيها على نخبة من كبار شيوخ الأزهر وعلماء العربية، الذين كان لهم الأثر البالغ في تكوين شخصيته، وتربية عقله العلمي، وترسيخ حبه للعلم؛ منهم: الشيخ / عبد السميع شبانة، والدكتور / محمد رفعت فتح الله، والشيخ / عبد الغني إسماعيل، والدكتور / محمد البهي، والدكتور عوض الله حجازي، والشيخ / سيد نعيم، والدكتور / حامد عبد القادر، والشيخ / أحمد الشرباصي، والشيخ محمد عتيبة، والشيخ / عبد العظيم الروبي، والشيخ / محمد عبد الخالق عضيمة، والشيخ المحقق / السيد أحمد صقر، والشيخ / محمد علي النجار - رحمهم الله جميعاً.

بعد تخرجه التحق فضيلة الشيخ / محمد أبو موسى بالدراسات العليا التي اجتاز امتحاناتها التحريرية، كما اجتاز الامتحان الشفوي الذي تشكّلت لجنته من عمداء الكليات الأزهرية الأصيلية الثلاث، وهم: الدكتور / علي عبد القادر، عميد كلية الشريعة، والدكتور / عبد الحليم محمود، عميد كلية أصول الدين، شيخ الأزهر الشريف فيما بعد، والشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، عميد كلية اللغة العربية، مضافاً إليهم رئيس قسم البلاغة، وأقدم أستاذ في القسم.

وعقب إنهائه سنتي الدراسات العليا كتب الشيخ بحثاً تكميلياً بعنوان:

«بلاغة المِفْتَاح: دراسةً وتقويمٌ»، حاز به درجة التخصّص (الماجستير) في البلاغة والنقد من كلية اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٦٧م، وبعدها بأربع سنوات حصل على درجة العالِمِيَّة (الدكتوراه) بمرتبة الشرف الأولى عن رسالته: «البحثُ البلاغي في تفسير الكشف وأثره في الدراسات البلاغية»، بإشراف الأستاذ الدكتور/ كامل الخولي، ومناقشة الأستاذ الدكتور/ محمد جمعة حسنين، والأستاذ الدكتور/ بدوي طبانة.

بدأ فضيلة الشيخ / محمّد أبو موسى رحلته الوظيفيّة مُعيّداً في قسم البلاغة والنقد بكلية اللّغة العربيّة بالقاهرة عام ١٩٦٤م، ثم مُدرّساً مُساعدًا، ومُدرّساً، وأستاذًا مساعدًا، وأستاذًا عام ١٩٨١م، كما شغل رئاسة قسم البلاغة والنقد أعوامًا كثيرة، وعضويّة اللجنة الدائمة لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين بجامعة الأزهر.

دَرَسَ الشيخُ في عددٍ من الجامعات، منها: جامعة بني غازي في ليبيا، وأمّ دُرْمان في السودان، وأمّ القرى في المملكة العربية السّعودية.

وقد انضمَّ فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمّد محمّد أبو موسى إلى هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف عضوًا مؤسسًا لها في طَوْرِها الثاني، بموجب القرار الجمهوري رقم (٢٤) لسنة ٢٠١٢م، بشأن تشكيل هيئة كبار العلماء برئاسة فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف.

أمّا عن العطاء العلميّ لفضيلة الشَّيخ فقد أثرى - ولا يزال يُثري - المكتبة العربيّة والبلاغيّة بكثيرٍ من المُصنّفات النّافعة، بلغت حتى كتابة هذه السُّطور ثلاثين كتابًا، تُعادل ما يقارب ستّة عشر ألف صَفْحَةٍ، وجُلُّها طُبِعَ غيرَ مرّةٍ تلبيةً لإقبال أهل العلم وطلابه من شتّى بقاع الأرض، كما تُرجم بعضها إلى اللغة التركيّة.

ومن هذه المُصنّفات: «البلاغة القرآنيّة في تفسير الزّمخشرّي وأثرها في الدّراسات البلاغيّة»، «من أسرار التعبير القرآني - دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب»، «خصائص التراكيب»، «التّصوير البياني»، «دلالات التراكيب»، «قراءة في الأدب القديم»، «دراسة في البلاغة والشّعر»، «الإعجاز البلاغي»، «مدخل إلى كتابيّ عبد القاهر الجرجاني»، «مراجعات في أصول الدّرس البلاغي»، «تقريب منهاج البلغاء لحازم القرطاجني»، «الشّعر الجاهلي - دراسة في منازع الشّعراء»، «آل حم: غافر - فصلت»، «آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان»، «آل حم: الجاثية - الأحقاف»، «الزّمر ومُحمّد وعلاقتهما بآل حم»، «شرح أحاديث من صحيح البخاري»، «شرح أحاديث من صحيح مسلم»، «المسكوت عنه في التّراث البلاغي»، «من مداخل التجديد»، «من التّراث النّقدي»، «من حديث يوسف وموسى عليهما السلام»، «من التّراث الحكيم»، «من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله - دراسة في بلاغته وبلاغته»، «من مناهجنا الغائبة في إعداد أجيالنا»، «المسكوت عنه في كتابيّ الموازنة ولباب الآداب»، وللشَّيخ كثيرٌ من المقالات المنشورة في المَجَلّات السيّارة؛ منها: مجلة الأزهر، ومجلة الوعي الإسلامي.

وتطبيقاً لما نادى به الشيخُ في كتاباته من ضرورة تقريب كُتب العلماء الكرام الكبار إلى عقول الأجيال الجديدة، وتعريفهم سبيلَ قراءة الكُتب التي أسَّست المعرفة، عقدَ الشيخ في عام ٢٠١٤م مجلساً في الجامع الأزهر الشريف لشرح كتابي الإمام عبد القاهر الجرجاني، اللّذين هما عمادُ البلاغة العربية وأصلُها؛ ففرغ من شرح كتاب «أسرار البلاغة» عام ٢٠١٦م، وبدأ في عقبه شرح كتاب «دلائل الإعجاز»، ولا يزال يواصل شرحه حتى يومنا هذا.

ولم يقف العطاء العلمي للشيخ عند ذلك كلّهُ، بل تعدّاه إلى عطاءٍ أمدٍّ ميّداً وأكثرَ جريّاناً، وهو تخريجُه أجيالاً متكاثرةً من الأساتذة والعلماء الذين نهّلوا من معين علمه الصافي، وساروا على دربه في خدمة العلم وطلابه، وهم منتشرون في بقاع العالم العربي والإسلامي، لا يحُدُّهم حدٌّ ولا يُحصيهم عدٌّ.

وطوال مسيرته العلميّة شارك فضيلة الشَّيخ / محمد أبو موسى في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية في كثير من الدول، وأنتج عدداً كبيراً من الرسائل العلمية؛ إشرافاً ومناقشةً، داخل مصرَ وخارجها، وكان كثيرٌ من عُنواناتها ثمرةَ فكره وعمَل عقله؛ إذ كان لفضيلته جهودٌ عظيمةٌ في تجديد البحث البلاغي شكلاً ومضموناً، شَهِدَ بها أساتذةُ البلاغة في العالم العربي والإسلامي.

وإبرازاً لهذا الأثر الجليل الذي أحدثته كُتبُ الشيخ في البحث البلاغي وباحثيه، سُجِّلَ عددٌ من الرسائل العلمية في عدد من الجامعات العربية،

وَكُتِبَ كَثِيرٌ مِنَ الْكُتُبِ وَالْبَحُوثِ الْعِلْمِيَّةِ؛ لَتَدَارُسُ مُنَجَزُهُ الْمَعْرِفِي،  
وَالْتَعَمَّقُ فِي مَنْهَجِهِ فِي دِرَاسَةِ الْبَلَاغَةِ؛ تَنْظِيرًا وَتَطْبِيقًا.

لَقَدْ شَغِلَ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ / مُحَمَّدٌ أَبُو مُوسَى - وَلَا يَزَالُ حَفَظَهُ اللَّهُ -  
بِأَمَالِ الْأُمَّةِ وَأَلَامِهَا، وَبَذَلَ كَدَّهُ وَوُكِّدَهُ فِي حِمَايَةِ هُوِّيَّتِهَا وَالذُّودِ عَنْهَا،  
وَاسْتِنْهَاضِ هِمَمِ أَبْنَائِهَا وَإِنْدَارِهِمْ سَرَطَانَ التَّغْرِيبِ الْمُسْتَشْرِئِ فِي جَسَدِ  
الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ، الَّذِي يَعْمَلُ عَلَى مَسْخِ تَرَاثِهَا وَالْحَطِّ مِنْ أَقْدَارِ عُلُومِهَا  
وَعِلْمَائِهَا، وَهُوَ فِي ذَلِكَ مُسْتَلْهِمٌ نَهَجَ أَسَاتِذِهِ شَيْخِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْعَصْرِ  
الْحَدِيثِ؛ الشَّيْخِ الْأَسَاتِذِ / مُحَمَّدٍ مُحَمَّد شَاكِرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ إِذْ لَطَالَمَا قَصَدَ بَيْتَهُ  
الْأَهْلَ بِأَهْلِ الْعِلْمِ، وَجَلَسَ إِلَيْهِ، وَرَجَعَ إِلَيْهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْقَضَايَا، وَشَهِدَ  
لَهُ بِالصِّدْقِ وَالْفَضْلِ.

وَالشَّيْخُ - فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ ذَلِكَ - لَا يُعَلِّمُ طُلَابَهُ الْعِلْمَ فَحَسْبَ، بَلْ  
يَزْرَعُ فِيهِمُ الْأَنْفَةَ وَالْعِزَّةَ وَالتَّوَاضُّعَ وَالْكَدَّ، وَيُنْفِرُهُمْ مِنَ الْعُجْبِ وَالذَّلَّةِ  
وَالدَّعَةِ وَالضَّعَةِ وَالتَّقَوُّتِ عَلَى مَا يَنْتِجُهُ الْآخَرُونَ، وَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ  
يُصَدِّقُ فَعْلُهُ قَوْلَهُ.

حَفِظَ اللَّهُ فَضِيلَةَ الْأَسَاتِذِ الدُّكْتُورِ / مُحَمَّدٍ أَبُو مُوسَى، وَبَارَكَ فِي عُمُرِهِ  
وَعِلْمِهِ، وَجَزَاهُ عَنِ الْعِلْمِ وَطُلَابِهِ خَيْرًا.



## ترجمة أبي العباس المبرد

(٢١٠ - ٢٨٥هـ) (١)



هو إمامُ نَحَاةِ البَصْرَةِ في عَصْرِه، حُجَّةُ الأَدَبِ والأَخْبَارِ ونَقْدِ الشُّعْر، مَنْ انتهى إليه عِلْمُ العَرَبِيَّةِ بعد طبقةِ الجَرَمِيِّ والمَازِنِيِّ.. إِنَّهُ أَبُو العَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الأَكْبَرِ الأَزْدِيُّ، المعروفُ بـ«المُبرِّد».

وُلِدَ بالبَصْرَةِ سنةَ ٢١٠ هـ، وفي سَبَبِ تَلْقِيهِ بـ«المُبرِّد» بفتح «رَاءٍ» وكَسَرِهَا مع التشديد في الحالتين ولأهل العلم خلاف في ذلك، ولكلُّ بُرْهَانِهِ.

وَنَشَأَ المُبرِّدُ بالبَصْرَةِ، وانتقلَ منها إلى «سُرَّ مَنْ رَأَى» بطلبٍ من الخليفةِ المُتَوَكِّلِ فَلَزِمَهُ وجالَسَهُ، وَلَمَّا قُتِلَ المُتَوَكِّلُ رحَلَ إلى بغداد، ولم يَلْبَثْ أَنْ صَارَتْ لَهُ حَلَقَةٌ عَظِيمَةٌ أَوْغَرَتْ عَلَيْهِ صَدْرَ أَبِي العَبَّاسِ ثَعْلَبَ، فأغرى به تلامذته؛ يسألونه والمُبرِّدُ يُجِيبُ، حَتَّى عَرَفُوا قَدْرَهُ؛ فَتَبِعَهُ بَعْضُهُمْ مُنْصَرِفِينَ عن شيخهم «ثَعْلَب»، فنشأتُ خُصُومَةٌ بين العالمينِ الكبيرين.

كان المُبرِّدُ وَسِيمًا، ظريفَ الطَّبْعِ، خفيفَ الرُّوحِ، مَلِيحَ الأَخْبَارِ، كثيرَ الأَمَالِي، حَسَنَ النُّوَادِرِ، وكان مِنَ العِلْمِ، وغزارةِ الأَدَبِ، وكثرةِ الحِفْظِ، وفصاحةِ اللِّسَانِ، وكَرَمِ العَشِيرَةِ، وجَوْدَةِ الخَطِّ، وقُرْبِ الإفْهَامِ - على ما ليس عليه أَحَدٌ مِمَّنْ تَقَدَّمَه أو تَأَخَّرَ عنه.

---

(١) هذه التَّرجمةُ مُختصرةٌ من التَّرجمةِ الوافيةِ التي دَبَّجَهَا فضيلةُ الشَّيخِ الجليلِ / مُحَمَّدِ عَبْدِ الخَالِقِ عَضَيْمَةَ، وأَثْبَتَهَا في مُقَدِّمَةِ تحقيقِهِ كتابَ «المُقْتَضَب» للمُبرِّد، وَمِنْ تَرْجَمَةِ المُحَقِّقِ الكَبِيرِ الدُّكْتُورِ مُحَمَّدِ الدَّالِيِّ التي صَدَّرَ بِهَا تحقيقَهُ كتابَ «الكامل».

تَلَقَّى مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ الْعِلْمَ عَلَى أَشْيَاخِ عَصْرِهِ؛ فَبَدَأَ بِقِرَاءَةِ كِتَابِ سَيُوبِهِ عَلَى الْجَرْمِيِّ وَخَتَمَهُ عَلَى الْمَازِنِيِّ، كَمَا رَوَى الْأَدَبُ عَنِ التَّوْزِيِّ وَقَرَأَ عَلَيْهِ نَوَادِرَ أَبِي زَيْدٍ، كَمَا تَلَقَّى عَلَى أَبَانَ الْبَصْرِيِّ، وَأَحْمَدَ بْنَ طَيْفُورٍ، وَالْقَاضِي إِسْمَاعِيلَ بْنَ إِسْحَاقَ، وَرَوَى عَنِ الْجَاحِظِ.

وَكَانَ لِكِتَابِ سَيُوبِهِ كِبَرُ الْأَثَرِ فِي نَفْسِ الْمُبَرِّدِ وَثِقَافَتِهِ؛ إِذَا اشْتَهَرَ بِإِقْرَائِهِ وَهُوَ غُلَامٌ، وَكَانَ يَقُولُ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَقْرَأَهُ عَلَيْهِ: «هَلْ رَكِبْتَ الْبَحْرَ؟»؛ تَعْظِيمًا لَهُ وَاسْتِصْعَابًا لِمَا فِيهِ.

وَأَتْنَى عَلَى الْمُبَرِّدِ جَمْعُ كَبِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ؛ مِنْهُمْ: السَّيرَافِيُّ، وَكَمَالُ الدِّينِ الْأَنْبَارِيُّ، وَابْنُ خَلِّكَانَ، وَنَفْطَوَيْهِ، وَابْنُ جُنِّيٍّ، وَأَبُو مَنْصُورٍ الْأَزْهَرِيُّ.

وَقَدْ أَخَذَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَدْبَاءِ وَالْعُلَمَاءِ؛ أَبْرَزُهُم «الزَّجَّاجُ»، الَّذِي أَنْتَهَتْ إِلَيْهِ رِيَاسَةُ النَّحْوِ الْبَصْرِيِّ بَعْدَ الْمُبَرِّدِ، وَمِنْهُمْ: عَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ الْأَخْفَشُ، وَأَبُو بَكْرٍ بْنُ السَّرَّاجِ، وَابْنُ كَيْسَانَ، وَنَفْطَوَيْهِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ.

كَانَ أَبُو الْعَبَّاسِ شَاعِرًا، وَذَكَرَهُ الْمَرْزُبَانِيُّ فِي «مُعْجَمِ الشُّعْرَاءِ»، كَمَا كَانَتْ لَهُ صَلَاتٌ بِشُعْرَاءِ عَصْرِهِ؛ فَخَالَطَهُمْ وَرَوَى عَنْهُمْ شِعْرَهُمْ، وَمِنْ أَخْصِهِمُ الْبُحْتَرِيُّ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُبَرِّدِ صَدَاقَةٌ وَثِيقَةُ الْعُرَى وَأُلْفَةٌ سَقَطَتْ بِهَا الْكُلْفَةُ، حَتَّى دَاعَبَهُ وَمَدَحَهُ فِي شِعْرِهِ، كَمَا نَظَّمَ ابْنُ الرُّومِيِّ قَصِيدَةً طَوِيلَةً فِي مَدْحِهِ.



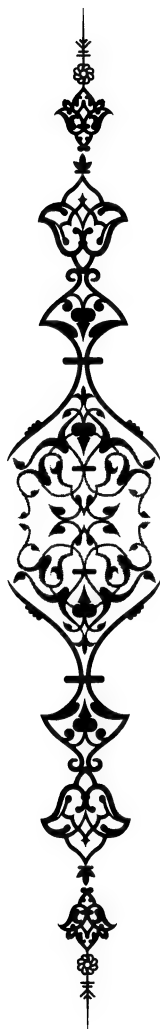
أَمَّا عَنْ آثَارِ الْمُبَرِّدِ فَيَقُولُ الشَّيْخُ عُضَيْمَةُ: «إِنَّ الْكُتُبَ الَّتِي أَلْفَهَا أَبُو الْعَبَّاسِ تَنَاوَلَتْ فُرُوعَ الْعَرِيبَةِ، وَإِنَّهُ عَصَفَتْ حَوَادِثُ الْأَيَّامِ بِكَثِيرٍ مِنْهَا، وَقَدْ بَقِيَ لَنَا أَنْفُسُهَا».

وَمِنْ أَهَمِّ مُصَنَّفَاتِهِ: «الْكَامِلُ، وَالْمُقْتَضَبُ، وَالْفَاضِلُ، وَشَرْحُ لَامِيَّةِ الْعَرَبِ، وَالْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ، وَالتَّعَاذِي وَالْمَرَاثِي، وَاحْتِجَاجُ الْقُرَاءِ، وَالِاشْتِقَاقُ، وَالْخَطُّ وَالْهَجَاءُ، وَشَرْحُ شَوَاهِدِ كِتَابِ سَيَبَوِيهِ، وَمَا اتَّفَقَتْ أَلْفَاظُهُ وَاخْتَلَفَتْ مَعَانِيهِ».

وَيَمْتَازُ أَسْلُوبُ أَبِي الْعَبَّاسِ بِبَسْطِ الْعِبَارَةِ، وَوُضُوحِ الْبَيَانِ، وَالْوَلُوعِ بِالْإِكْثَارِ مِنَ الْمُرَادِفَاتِ، وَإِثَارِ الْإِجْمَالِ ثُمَّ التَّفْصِيلِ، وَتَكَرُّرِ أَسْلُوبِ الْإِسْتِثْنَاءِ مِنَ الْإِسْتِثْنَاءِ.

تُوفِّي الْمُبَرِّدُ فِي آخِرِ سَنَةِ ٢٨٥هـ، وَقِيلَ سَنَةَ ٢٨٦هـ، وَدُفِنَ بِمَقْبَرَةِ بَابِ الْكُوفَةِ بِهَا فِي دَارِ اشْتَرِيَتْ لَهُ.





## كتاب «الكامل»

يَنْزِلُ كِتَابُ «الكامل» لِأَبِي الْعَبَّاسِ الْمُبَرِّدِ مِنْ أَسْفَارِ الْأَدَبِ وَدَوَائِينِهِ الْمَنْزِلِ الْأَرُوعِ، وَيَحِلُّ مِنْهَا الْمَحَلُّ الْأَرْفَعُ؛ فَهُوَ مَعْدُودٌ مِنَ الدَّوَائِينَ الْأَرْبَعَةِ الْأَرْكَانِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ، الَّتِي مِنْهَا تُسْتَمَدُّ مَبَادِيُّ هَذَا الْفَنِّ وَأَصُولُهُ؛ قَالَ ابْنُ خَلْدُونٍ: «وَسَمِعْنَا مِنْ شُيُوخِنَا فِي مَجَالِسِ التَّعْلِيمِ أَنَّ أَصُولَ هَذَا الْفَنِّ وَأَرْكَانَهُ أَرْبَعَةٌ دَوَائِينَ، وَهِيَ: أَدَبُ الْكُتَّابِ لِابْنِ قُتَيْبَةَ، وَكِتَابُ الْكَامِلِ لِلْمُبَرِّدِ، وَكِتَابُ الْبَيَانِ وَالتَّبَيِّنِ لِلْجَاحِظِ، وَكِتَابُ النَّوَادِرِ لِأَبِي عَلِيٍّ الْقَالِي الْبَغْدَادِيِّ، وَمَا سِوَى هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ فَتَبَعٌ لَهَا وَفُرُوعٌ عَنْهَا»<sup>(١)</sup>.

جَمَعَ فِيهِ أَبُو الْعَبَّاسِ - كَمَا قَالَ فِي مُفْتَتِحِهِ - ضُرُوبًا مِنَ الْأَدَابِ؛ مَا بَيْنَ كَلَامٍ مَنثورٍ، وَشِعْرِ مَرصُوفٍ، وَمَثَلٍ سَائِرٍ، وَمَوْعِظَةٍ بِالْغَةِ، وَاخْتِيَارٍ مِنْ خُطْبَةٍ شَرِيفَةٍ وَرِسَالَةٍ بَلِيغَةٍ، وَفَسَّرَ كُلَّ مَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ كَلَامٍ غَرِيبٍ، أَوْ مَعْنَى مُسْتَغْلِقٍ، وَشَرَحَ مَا يَعْرِضُ فِيهِ مِنَ الْإِعْرَابِ شَرْحًا وَافِيًا<sup>(٢)</sup>.

وَأَثْنَى أَبُو الْفَرَجِ الْمُعَافَى عَلَى عَمَلِ الْمُبَرِّدِ فِي «الْكَامِلِ» فَقَالَ: «وَعَمِلَ أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يُزَيْدَ النَّخْوِيُّ كِتَابَهُ الَّذِي سَمَّاهُ (الْكَامِلِ)، وَضَمَّنَهُ أَخْبَارًا وَقِصَصًا لَا إِسْنَادَ لكَثِيرٍ مِنْهَا، وَأَوْدَعَهُ مِنْ اشْتِقَاقِ اللُّغَةِ وَشَرْحِهَا وَبَيَانِ أَسْرَارِهَا وَفِقْهِهَا مَا يَأْتِي مِثْلُهُ بِهِ؛ لَسَعَةِ عِلْمِهِ، وَقُوَّةِ فَهْمِهِ، وَلَطِيفِ

(١) مُقَدِّمَةُ ابْنِ خَلْدُونٍ ١ / ٧٦٣ - ٧٦٤.

(٢) يُنْظَرُ: الْكَامِلُ ١ / ٥.

فِكْرَتِهِ، وَصَفَاءِ قَرِيحَتِهِ، وَمِنْ جَلِيِّ النَّحْوِ وَالْإِعْرَابِ وَغَامِضِهِمَا مَا يَقِلُّ وَجُودُ مَنْ يَسُدُّ فِيهِ مَسَدَّهُ<sup>(١)</sup>، وَلَا يَقْدَحُ مَا أَخَذَهُ «الْمُعَافَى» عَلَى «الْكَامِلِ» فِي قِيَمَةِ الْكِتَابِ وَمَكَانَتِهِ.

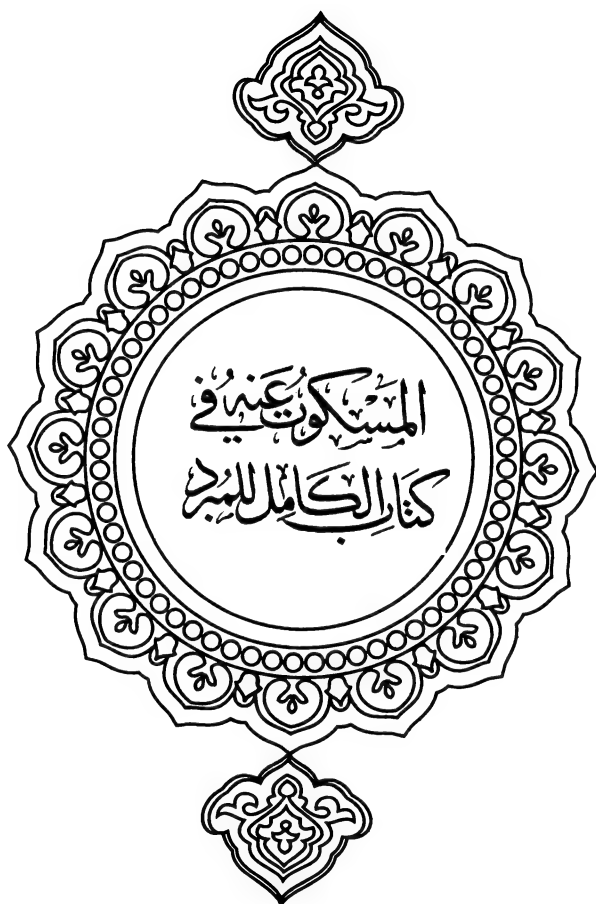
وَقَدْ أَقْبَلَ الْعُلَمَاءُ عَلَى كِتَابِ «الْكَامِلِ»؛ يُقَرِّئُونَهُ، وَيُشْرَحُونَهُ، وَيُعَلِّقُونَ عَلَيْهِ، وَيُنَبِّهُونَ عَلَى أَغَالِيظِهِ، وَيَحْتَذِرُونَهُ فِي التَّأْلِيفِ؛ فَكَانَ مِمَّنْ شَرَحَهُ: أَبُو الْوَلِيدِ الْوَقْشِيُّ (ت ٤٨٩هـ) فِي كِتَابِهِ: «نُكْتُ الْكَامِلِ»، وَهُوَ وَابْنُ السَّيِّدِ الْبَطْلِيُّوسِيُّ (ت ٥٢١هـ) فِي كِتَابِهِ: «الْقُرْطُ عَلَى الْكَامِلِ»، وَنَبَّهَ عَلَى أَغَالِظِهِ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ حَمْزَةَ الْبَصْرِيُّ (ت ٣٧٥هـ) فِي كِتَابِهِ: «التَّنْبِيهَاتُ عَلَى أَغَالِظِ الرُّوَاةِ»، وَشَرَحَهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَصْرِ الْحَاضِرِ الشَّيْخُ / سَيِّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْمَرْصَفِيُّ (ت ١٣٤٩هـ) فِي كِتَابِهِ: «رَغَبَةُ الْآمِلِ مِنْ كِتَابِ الْكَامِلِ»، وَاحْتَذَاهُ فِي التَّأْلِيفِ أَبُو الْفَتْحِ الْمَرَاغِيُّ (ت ٣٧١هـ) فِي كِتَابِهِ: «النَّهْجَةُ»، وَعَلَّقَ عَلَيْهِ الْإِمَامَانِ مُغْلَطَايَ بْنِ قَلِيحٍ (ت ٧٦٣هـ) وَقُطْلُوبُغَا (ت ٨٧٩هـ)، وَمِمَّنْ عُرِفَ بِإِقْرَائِهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عِلَاقَةَ الْبَوَّابِ (ت ٣٢٥هـ) وَأَبُو الْحَسَنِ الدَّبَّاجُ الْإِشْبِيلِيُّ (ت ٦٤٦هـ)<sup>(٢)</sup>.

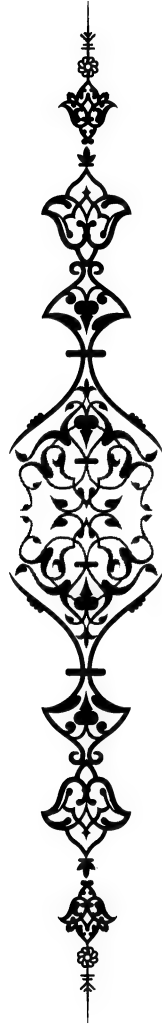
وَقَدْ وَقَفَ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ / مُحَمَّدٌ عُضَيْمَةٌ فِي مَقْدَمَةِ «الْمُقْتَضَبِ» عَلَى مَا تَضَمَّنَهُ «الْكَامِلُ» مِنَ الْأَبْوَابِ النَّحْوِيَّةِ وَالْبَلَاغِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ، وَأَثْبَتَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ مَبَاحِثِ هَذِهِ الْعُلُومِ وَمَسَائِلِهَا مَقْرُونَةً بِأَرْقَامِ صَفْحَاتِهَا فِي الْكِتَابِ؛ فَلْتُطَالَعُ هُنَالِكَ<sup>(٣)</sup>.

(١) الْجَلِيسُ الصَّالِحُ الْكَافِي وَالْأُنَيْسُ النَّاصِحُ الشَّافِي ١ / ١٦١.

(٢) يُنْظَرُ: الْكَامِلُ ١ / ١٨ - ١٩ [مُقَدِّمَةُ الدُّكْتُور / مُحَمَّدُ الدَّالِي].

(٣) يُنْظَرُ: الْمُقْتَضَبُ ١ / ٦٤ - ٦٥ [مُقَدِّمَةُ الشَّيْخِ / عُضَيْمَةٌ].





## مقدمة فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد محمد أبو موسى

الحمد لله المُنعم بكل خير، والصلاة والسلام على رسوله ﷺ، المبلغ عن ربه كل خير، وبعد...

فإن الحديث عن المُبرِّد وطبقته - من أمثال: الجاحظ، وابن قُتيبة، وأبي هلال، وغيرهم من علمائنا - يُوجب علينا أن نذكر لهم شيئاً أجمعوا عليه وخالفناهم فيه، وهو أنهم تكلّموا في النّحو وفي البلاغة وهم في فيضٍ يفيض من الكلام الجيّد المُختار من شعرٍ وغيره، وأنهم لم يزرعوا النّحو والبلاغة في نفوس أجيالهم إلّا مع أو بعد ما زرعوها اللّغة؛ بحُرّ بيانها وجودة المُختار منها، في هذه النفوس؛ لأنّ قيمة النّحو أن تقول ولا تخطئ، فإذا كُنْتَ لا تستطيع أن تقول فعلمك بالنّحو وجْهٌ لك به سواء، وقيمة البلاغة أن تستطيع تميّز الحسَن والأحسن، وأن تستطيع أيضاً أن تصنع الحسن والأحسن، فإذا افتقدت هذه القدرة فلا قيمة لأيّ بلاغة حفظتها.

والبيان من الفِطْرة، والعجز عن إقامة ذائقة البيان واستخراجها من تحت رُكام الزّمان والأيام عجز مُزِرٌ بصاحبه، وراجع كلّ كلام علمائنا في البلاغة من لدن بشر بن المُعتمر تجد كلاماً صريحاً، ليس في بلاغة اللّسان العربيّ، وإنّما في بلاغة اللّسان الإنسانيّ، وأنهم كانوا يذكرون البلاغة عند الفُرس، وعند الرُّوم، وعند الهنود.. وعند غيرهم؛ للإشارة إلى أنهم يتحدثون عن الفِطْرة الإنسانيّة، وهي واحدة عند جميع الأمم،



ويقولون لك: كُنْ فارسياً أو عربياً أو هندياً، واعلم أنك - في النهاية - إنسان، خَلَقَكَ الرَّحْمَنُ عَلَّمَكَ الْبَيَانَ.

وَكُتِبُ هَذِهِ الطَّبَقَةُ بَيْنَ أَيْدِينَا؛ نَجِدُ كَلَامًا فِي الْبَلَاغَةِ مُخْتَصَرًا جَدًّا، وَيَتَّبَعُهُ فَيْضٌ مِنَ الشَّعْرِ الْمُخْتَارِ الْعَالِي الَّذِي يَفْتَحُ شَهِيَّةَ طَالِبِ الْعِلْمِ إِلَى اللُّغَةِ، وَيُعَلِّمُهُ مَا فِيهَا مِنْ حِكْمَةٍ، وَرِشَادٍ، وَكِرَمٍ، وَعَطَاءٍ، وَأَنْفَةٍ، وَحَمِيَّةٍ. وَحَذَفْنَا نَحْنُ كُلُّ ذَلِكَ، وَوَسَّعْنَا الْحَدِيثَ عَنِ الْقَوَاعِدِ، وَحَفِظَ طَلَابُنَا عَنَّا الْكَثِيرَ مِنْ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ، وَأَقَلَّ الْقَلِيلَ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْبَيَانِ، ثُمَّ إِنَّ الْمُسْكُوتَ عَنْهُ فِي كِتَابِ «الْكَامِلِ»، وَ«الْبَيَانِ وَالْتَّبَيِّنِ»، وَ«عُيُونِ الْأَخْبَارِ».. وَغَيْرِهَا، أَضْعَافٌ أَضْعَافٍ غَيْرِ الْمُسْكُوتِ عَنْهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّكَ - أَيُّهَا الْقَارِئُ - هُوَ الَّذِي يَرَى الْمُسْكُوتَ عَنْهُ، وَأَنَّهُ يَتَكَاثَرُ بَوَعِيكَ أَنْتَ، وَبِقَطْعَتِكَ أَنْتَ، وَيَغِيبُ بِغَفْلَتِكَ؛ فَإِذَا رَأَيْتَ «الْمُبَرَّدَ» يَذْكُرُ بَيْتًا مِنَ الشَّعْرِ، ثُمَّ يُكْثِرُ مِنْ ذِكْرِ نُظَرَائِهِ وَأَشْبَاهِهِ، وَيَمُدُّهُ مُحْفَوظُهُ بِالْكَثِيرِ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، ثُمَّ تَرَى وَعِيكَ يَقُولُ لَكَ: إِنَّ «الْمُبَرَّدَ» ذَكَرَ هَذَا الشَّعْرَ الْكَثِيرَ الْمُتَشَابِهَ فِي الْمَعْنَى وَالْمُتَبَاعِدَ فِي الْمَبَانِي؛ لِيَقُولَ لَنَا: ادْرُسُوا الْمَعْنَى الْوَاحِدَ، وَابْحَثُوا كَيْفَ تَوَارَدَتْ عَلَيْهِ أَلْسِنَةُ أَهْلِ الْبَيَانِ، وَكَيْفَ أَصَابَهُ كُلُّ لِسَانٍ مِنَ الْجَهَةِ الَّتِي أَصَابَهُ بِهَا، وَوَازِنُوا، وَمَيِّزُوا، وَاخْتَارُوا.. إِذَا قَالَ لَكَ وَعِيكَ هَذَا أَصْبَحْتَ أَمَامَ بَابٍ جَلِيلٍ مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ الْمُسْكُوتِ عَنْهَا، وَبَدَأْتَ تَدْرُسُ سَبْكَ الشَّاعِرِ وَنَسْجَهُ وَرَصْفَهُ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى قَرِيبٌ وَالْبَيَانُ عَنْهُ مُخْتَلِفٌ، وَهَذَا الْاِخْتِلَافُ هُوَ السَّبْكَ وَالرَّصْفُ وَالنَّسْجُ وَالتَّصْوِيرُ.

وَإِذَا رَأَيْتَ «الْمُبَرَّدَ» يَذْكُرُ تَشْبِيهَ «الشَّمَاخِ» لِيَدِي النَّاقَةِ فِي سُرْعَتِهَا بِيَدِي امْرَأَةٍ يَصِفُهَا بِأَنَّهَا كَرِيمَةٌ وَعَرِيقَةٌ، وَقَدْ نَالَتَهَا الْأَلْسَنَةُ فَغَضِبَتْ وَتَكَلَّمَتْ

وأشارت بيديها اللتين صيرهما «الشَّمَاخُ» مُشَبَّهًا به لِمُشَبِّهِهُ هُوَ: يَدَا النَّاقَةِ، ثُمَّ يَذْكُرُ لَكَ «المُبَرَّدُ» تشبيهًا آخَرَ لـ «الشَّمَاخِ»، والمُشَبَّهُ هُوَ هُوَ: يَدَا النَّاقَةِ، والمُشَبَّهُ به هُوَ هُوَ: يَدَا امْرَأَةٍ غَضَبَى، ثُمَّ يَصِفُ هَذِهِ الثَّانِيَةَ بِأَنَّهَا بِذِيئَةٌ، وَقَوْلُ أَنْتَ أَيُّهَا الْقَارِئُ: لِمَاذَا وَصَفَ «الشَّمَاخُ» الْمَرْأَةَ الْأُولَى بِأَنَّهَا كَرِيمَةٌ وَالْمَرْأَةَ الثَّانِيَةَ بِأَنَّهَا بِذِيئَةٌ، وَالْمُشَبَّهُ وَاحِدٌ، وَالْمُشَبَّهُ بِهِ وَاحِدٌ؟ أَنْتَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ صِرْتَ أَمَامَ مَسْكُوتٍ عَنْهُ، وَتَذْهَبُ إِلَى دِيْوَانِ «الشَّمَاخِ»، وَتَقْرَأُ بِإِمْعَانٍ شَدِيدٍ؛ لِتَبَيَّنَ الشَّيْءَ الَّذِي أَغْرَاهُ بِوَصْفِ الْمَرْأَةِ الْأُولَى بِأَنَّهَا كَرِيمَةٌ، وَالْمَرْأَةَ الثَّانِيَةَ بِأَنَّهَا بِذِيئَةٌ، وَتَبْدَأُ تَفْتَحُ بَابَ لَيْسَ مُلَاءِمَةً الْمُشَبَّهَ بِهِ لِلْمُشَبِّهِ، وَإِنَّمَا بَابُ مُلَاءِمَةِ الْمُشَبَّهِ بِهِ لِسِيَاقِ الْقَصِيدَةِ، وَهُوَ غَائِبٌ عِنْدَنَا تَمَامًا، وَلَوْ أَحْسَنَّا وَعَيَّ الْمَسْكُوتَ عَنْهُ فِي كَلَامِ «المُبَرَّدِ» وَغَيْرِهِ؛ لَوْجَدْنَا مِنْهُمْ دَعْوَةً صَرِيحَةً لِدِرَاسَتِهِ.

وَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الَّذِي جَمَعَهُ «المُبَرَّدُ» وَغَيْرُهُ فِي وَصْفِ الْإِبِلِ وَالْخَيْلِ وَالرِّيَّاحِ وَالْأَنْوَاءِ، وَكَأَنَّكَ أَمَامَ أَبْوَابٍ مَفْتُوحَةٍ لِدِرَاسَةِ الْعِلْمِ الَّذِي كَانَ فِي الشُّعْرِ، الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِلْعَرَبِ عِلْمٌ سِوَاهُ، كَمَا قَالَ سَيِّدُنَا عُمَرُ، وَكَانَتْهُمْ أَرَادُوا - أَوْ لَمْ يُرِيدُوا - أَنْ يَفْتَحُوا لَنَا دِرَاسَةَ عِلْمِ الشُّعْرِ الَّذِي ذَكَرَهُ سَيِّدُنَا عُمَرُ.

وَدَعُ هَذَا وَارْجِعْ إِلَى الشُّوَاهِدِ الَّتِي عَلَّقَ عَلَيْهَا «المُبَرَّدُ» وَعَلَّقَ عَلَيْهَا «عَبْدُ الْقَاهِرِ»، وَتَدَبَّرِ التَّعْلِيقَيْنِ؛ لِتَرَى كَيْفَ كَانَ يَقْرَأُ اللَّاحِقُ عِلْمَ السَّابِقِ؟ وَكَيْفَ كَانَ تَعْلِيقُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَشْبَهَ بِزَمَانِهِ، وَأَشْبَهَ بِالَّذِي آلَتْ إِلَيْهِ دِرَاسَةُ الْبَيَانِ فِي زَمَانِهِ، وَأَنَّ تَعْلِيقَ «المُبَرَّدِ» مَا كَانَ يَصْلُحُ لَزَمَانِ «عَبْدِ الْقَاهِرِ»؟ وَهَذَا كَثِيرٌ وَجَيِّدٌ وَمُمْتَعٌ.

وانظر مثلاً إلى قول «المُبرِّد» في وصفِ بعض الشعرِ بجودة اللَّفظ، وحُسْنِ الرَّصف، واستواءِ النَّظم، وهل يجوزُ لي أو لك أن نَصِفَ الشعرَ بهذا الوصفِ الذي وَصَفَهُ «المُبرِّد»، أم أنَّ الواجبَ أن نَسْتَخْرِجَ من هذا الشعرِ جودةَ اللَّفظ، وحُسْنِ الرَّصف، واستواءِ النَّظم، وأن نَعْتِقِدَ أَنَّهُ لَمَّا قال لنا هذا قال الذي عنده، وعليك أنت أن تقولَ الذي عندك، وأن تُراجِعَ الشعرَ الموصوفَ بهذه الأوصاف، وأن تَضَعَ يدَكَ ويَدَ قارئك على جودةِ اللَّفظ، وحُسْنِ الرَّصف، واستواءِ النَّظم؟

وقُلْ مثلَ ذلك في الآياتِ التي تراه يقول فيها: «قال الشعراءُ قَبْلَهُ فلم يَبلغوا مِقدارَه»؛ هل تَرى مِنَ العلمِ أن نَحْفَظَ هذا وأن نَقولَه لطلّابنا، وأن نكتبه في كُتُبنا مِن غير أن نُبيِّنَ وأن نَتَبَيَّنَ الذي قاله الشعراءُ، وأن نُبيِّنَ وأن نَتَبَيَّنَ الذي قاله، والذي لم يَبلغِ الشعراءُ مِقدارَه؟

وكلُّ هذا لا يكونُ إلَّا بِالتَّحْلِيلِ الدَّقِيقِ لمباني الكلامِ ولمعانيه، ووضعِ اليدِ على الصَّنْعَةِ الفَائِقَةِ، والنَّظْمِ المُعْجِبِ الرَّائِعِ. وكلُّ الذي تَبَحُّثُهُ أنت وتُضِيفُهُ إلى كلامٍ مَن سَبَقُوكَ هو اللَّبَنَةُ التي تَضَعُهَا في العلمِ، وليستِ اللَّبَنَةُ إلَّا استِخْراجُ مَسْكُوتٍ عنه في كلامٍ غيرِكَ، وتذكُّرُ أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «فأنا اللَّبَنَةُ»<sup>(١)</sup>، ومِنَ الاستِثْنانِ بسُنَّتِهِ واتباعِهِ وحُبِّهِ أن تقولَ أنت وأن أقولَ أنا: «فأنا اللَّبَنَةُ»، في البابِ الذي انقَطَعَتْ أنت إليه، والبابِ الذي انقَطَعْتُ أنا إليه، وهذا هو التَّقَدُّمُ الذي ليس للتَّقَدُّمِ بابٌ سِوَاهُ.

(١) مِن حَدِيثِ البُخَارِيِّ الذي أَخْرَجَهُ بِسَنَدِهِ عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِن قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِن زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطْوِفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ؟ قال: فأنا اللَّبَنَةُ وأنا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»، صحيحُ البُخَارِيِّ، كتاب: المناقب، باب: خَاتِمُ النَّبِيِّينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم (٣٥٣٥).

وَدَعُ هَذَا كُلَّهُ وَارْجِعْ إِلَى نَفْسِكَ وَفِي يَدِكَ الْقَلَمُ وَأَنْتَ تَكْتُبُ كِتَابًا  
وَتَبْحَثُ فِي بَابٍ، لَا شَكَّ أَنَّكَ سَتَجِدُ كَثِيرًا مِنَ الْأَفْكَارِ الَّتِي تَكْتُبُ فِيهَا،  
لَوْ أَعْمَلْتَ عَقْلَكَ وَرَاجَعْتَ وَتَدَبَّرْتَ وَتَغْلَغَلْتَ - كَمَا يَقُولُ عِلْمَاؤُنَا -؛  
لظَهَرَ لَكَ مِنْ تَحْتَ الْفِكْرَةِ فِكْرَةٌ جَدِيدَةٌ، وَيُسَهِّلُ إِلَيْكَ الْوَصُولَ إِلَيْهَا  
سَعَةً عِلْمِكَ فِي الْبَابِ الَّذِي تَعْمَلُ فِيهِ، فَلَيْسَ التَّدَبُّرُ وَحْدَهُ كَافِيًا، وَإِنَّمَا  
التَّدَبُّرُ بِالْعَقْلِ الْعِلْمِيِّ الَّذِي اتَّسَعَ تَحْصِيلُهُ، وَاتَّسَعَ وَعَيْهِ فِي هَذَا الْبَابِ،  
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ تَحْتَ الْفِكْرَةِ فِكْرَةٌ، وَتَحْتَ الْعِلْمِ عِلْمٌ، لَمَا رَأَيْنَا الثَّانِيَّ  
يَبْنِي عَلَى كَلَامِ الْأَوَّلِ، وَلَتَوَقَّفَتْ الْعُلُومُ كُلُّهَا، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَنْمُو وَتَتَقَدَّمُ  
بِاسْتِخْرَاجِ عِلْمٍ مِنْ تَحْتَ عِلْمٍ، وَفِكْرٍ مِنْ تَحْتَ فِكْرٍ، وَفَنٌّ مِنْ تَحْتَ فَنٍّ،  
وَفَلَسَفَةٌ مِنْ تَحْتَ فِلَسَفَةٍ، وَأَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ سَتَصِلُ إِلَى هَذَا بِتَجَرِبَتِكَ.

وَمَا تَغْلَغَلَ عَقْلِي فِي فِكْرَةٍ كُتِبَتْ فِي أَيِّ زَمَنِ إِلَّا وَجَدْتُ تَحْتَهَا فِكْرَةً،  
وَوَجَدْتُ كَلَامَ الْعُلَمَاءِ الْكِبَارِ صَرِيحًا فِي بَيَانِ هَذَا، وَرَاجِعَ وَصَفَ عَبْدُ  
الْقَاهِرِ لَثَرَاثِ الْعُلَمَاءِ فِي عِلْمِ الْبَلَاغَةِ قَبْلَهُ، وَأَنَّهُ - كَمَا قَالَ - كَالرَّمْزِ  
وَالْإِيمَاءِ وَالْإِشَارَةِ فِي خَفَاءٍ، وَأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ حَوَّلَ الرَّمْزَ وَالْإِيمَاءَ وَالْإِشَارَةَ  
فِي خَفَاءٍ إِلَى عِلْمٍ يُدْرَسُ، ثُمَّ ذَكَرَ أَيْضًا أَنَّهُ كَالْإِشَارَةِ إِلَى مَكَانِ الْخَبِيِّءِ  
لِيُسْتَخْرَجَ، وَاسْأَلْ أَنْتَ عَنْ هَذَا الْخَبِيِّءِ الْمَدْفُونِ، وَأَنَّ السَّابِقَ اسْتَشْعَرَهُ  
وَأَشَارَ إِلَى مَكَانِهِ لِيُسْتَخْرَجَ اللَّاحِقُ، هَلْ هُوَ شَيْءٌ غَيْرُ عِلْمٍ تَسْتَخْرِجُهُ  
مِنْ مَدَافِنِهِ، وَتُصَفِّيهِ، وَتُثَقِّفَهُ، وَتَجْعَلُهُ لَبَنَةً مِنْ لَبَنَاتِ الْعِلْمِ؟

وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ قَلَمَكَ الَّذِي فِي يَدِكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَى أَنْ  
يُسْتَخْرَجَ دَفَائِنَ الْمَعْرِفَةِ مِنْ مَرَاقِدِهَا فَالْأُولَى بِكَ أَنْ تَرَكَّهُ. وَلَا تَقُلْ  
لِي: أَيْنَ الدَّفَائِنُ الَّتِي اسْتَخْرَجَهَا قَلَمُكَ؟ لِأَنَّ جَوَابِي هُوَ أَنَّنِي انْقَطَعْتُ

إلى القراءة والبحث، وبذلتُ أَقْصَى طاقَتِي، وهذا حَسْبِي، «وَمُبْلَغُ نَفْسٍ عَذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحٍ»<sup>(١)</sup>.

ثمَّ إِنِّي وَجَدْتُ شَيْئاً آخَرَ؛ هو أَنَّ الفكرةَ التي أُسْكِنُها في عقلي وقلبي، وَأُسْكِنُ فيها عقلي وقلبي؛ لَتَنُمُو هي بعقلي وقلبي، وَلِيَنُمُو عقلي وقلبي بها - إذا لم تَفْتَحْ لي بابَ فكرةٍ وراءها أثارت في نفسي فكرةً ليستَ منها وإِنَّمَا كانتَ بها، وأيقنتُ أَنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ - لا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، ولو كان الذي يُحَسِّنُ عمله جاحداً لوجود الله، وَأَنَّ مَنْ يُريدُ حَرثَ الدُّنْيَا يُوفِّيه الله منها؛ فكيف إذا كنَّا نريدُ خدمةَ خيرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ؟

ودَعَكَ من تجربتي ومن تجربتك وِرَاجِعَ قولِ «المُزَنِي»، وَأَنَّهُ قرأ «رسالةَ الشَّافِعِيِّ» خمسَ مائةِ مرَّةٍ، وَأَنَّهُ كان يَفْهَمُ منها في كُلِّ مرَّةٍ شَيْئاً لم يَفْهَمْه في التي قبلها، وأثبتَ ذلكَ المرحومُ أحمدُ شاكر في مُقَدِّمَتِهِ لتحقيقِ «الرَّسالة».

هل كان «المُزَنِي» يَفْهَمُ ظاهرَ كلامِ «الشَّافِعِيِّ»؟ أم أَنَّهُ تَغْلَغَلَ مِنْ ظاهِرِها إلى باطنِها، وعاش في عطاءِ الذي تحتَ هذا الظَّاهرِ؟ وَأَنَّهُ تَرَكَها بعدَ خمسَ مائةِ قراءةٍ وهي تُعْطِيه، ولو زادَ لَزَادَتْه، أليسَ كُلُّ هذا مِنَ الْمَسْكُوتِ عنه في رسالةِ الشَّافِعِيِّ؟

وأيضاً عَدَّ عن كُلِّ الذي مَضَى وَاقرأ فقط «القَوسَ العَذراءَ» للمرحومِ محمودِ شاكر، وهي أَكْثَرُ من مائتي بيتٍ مِنَ الشُّعرِ، وقد بَنَى هذه

(١) هذا عَجْزُ بَيْتٍ من بحر الطويل، أورده ابن قتيبة في «عيون الأخبار» (١/ ٣٤٣)، ونسبه لأوس

ابن حجر، وصدره والبيتُ السابق له:

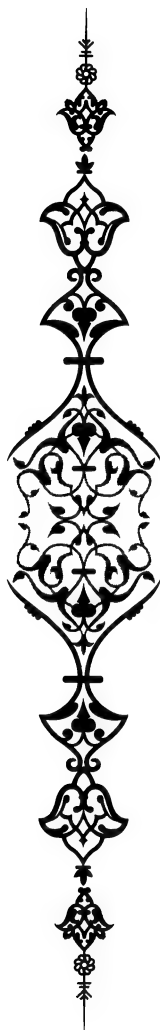
وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتَرَا  
لِيُنْبِي عَذْرًا أَوْ لِيَبْلُغَ حَاجَةً  
مِنَ الْمَالِ يَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحٍ  
وَمُبْلَغُ نَفْسٍ عَذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحٍ

الآبيات على أبياتٍ لـ«الشَّمَخ» وَصَفَ فِيهَا الْقَوْسُ، وَلَمَّا قَرَأْتُهَا رَأَيْتُ أَنَّهَا نَمُودَجٌ جَلِيلٌ نَقْتِدِي بِهِ فِي قِرَاءَةِ تُرَاثِنَا؛ لِأَنَّهَا مَدَّتْ أَبِيَّاتَ «الشَّمَخ» الْقَلِيلَةَ، وَقَرَأْتُهَا قِرَاءَةً جَدِيدَةً، وَكَتَبْتُ عَنْهَا رِسَالَةً صَغِيرَةً عُنَوْنُهَا: «الْقَوْسُ الْعِذْرَاءُ وَقِرَاءَةُ التُّرَاثِ»، وَقَرَأَ الْمَرْحُومُ مُحَمَّدُ شَاكِرٌ مَا كَتَبْتُهُ وَقَالَ لِي إِنَّ كَثِيرًا مِنْ كُتَّابِنَا كَتَبُوا عَنْ قَصِيدَتِهِ «الْقَوْسُ الْعِذْرَاءُ»، وَلَمْ يَلْتَفِتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَى هَذِهِ الْجِهَةِ الَّتِي أَلْتَفْتُ أَنَا إِلَيْهَا.

وَلَمْ يَكُنْ هَذَا مِنِّي إِلَّا لِأَنِّي أُعَانِي فِكْرَةَ: كَيْفَ أَنْقُلُ تُرَاثِنَا مِنَ الزَّمَنِ الَّذِي قِيلَ فِيهِ إِلَى الزَّمَنِ الَّذِي أَنَا فِيهِ، وَوَجَدْتُ الْمَرْحُومَ مُحَمَّدَ شَاكِرَ أَصَابَ كُلَّ الْإِصَابَةِ لَمَّا نَقَلَ وَصَفَ «الشَّمَخ» لِلْقَوْسِ مِنْ زَمَانِ «الشَّمَخ» إِلَى زَمَانِنَا، وَكُلُّ يَبْدُلٍ مَا عِنْدَهُ.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

محمد محمد أبو موسى





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم أعنا، وتقبل منا، وصلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله كما صليت وسلّمت وباركت على سيدنا إبراهيم وعلى آله في العالمين إنك حميدٌ مجيد.

### «الكامل» في تاريخ البلاغة

إن بيان المسكوت عنه في كتاب «الكامل» يُوجِبُ أن أشير إلى أشياء تتعلق بنشأة البلاغة؛ لأن المسكوت عنه يتعلق كثيرٌ منه بهذه النشأة، وبيان المسكوت عنه تصحيحٌ لوَضَعَ كتاب «الكامل» في تاريخ نشأة هذا العلم، ثم إن كثيراً من المسكوت عنه ممّا يجب أن يدخَلَ في علم البلاغة نفسه وليس في تاريخه، ودخوله في هذا العلم يملأ فراغاً ويزداد به العلم حسناً وعطاءً واتساعاً.

والذين كتبوا في تاريخ البلاغة، وهم قلةٌ قليلةٌ من أمثالنا<sup>(١)</sup>، كانت عنايتهم بالمؤلفات هي الغالبة؛ فيتكلمون عن كتاب «البدیع» لابن المعتز و«نقد الشعر» لقدامة.. وهكذا، وهذا جيدٌ وضروريٌّ، ومن الجيد

(١) من أمثالنا الذين كتبوا في تاريخ البلاغة:

- الشيخ / أحمد مصطفى المراغي؛ كَتَبَ: «تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها»، وصدرت طبعته الأولى سنة ١٣٦٩هـ = ١٩٥٠م عن مكتبة مصطفى البابي الحلبي.  
- الدكتور / شوقي ضيف؛ كَتَبَ: «البلاغة: تطوُّر وتاريخ»، وصدرت له طبعاتٌ متكاثرَةٌ عن دار المعارف.

والضروري أيضاً العناية بتاريخ نشأة الفنون البلاغية، ومتى نشأ هذا الفن، وعلى يد مَنْ، وما السياق الذي أثار نشأته، وكيف كان ساعة ولِدْ، وما قصته بعد ذلك في الكتب، ثم أيضاً من تاريخ العلم أن نتعرف على الكتب والدراسات التي بَشَّرَتْ به قبل أن يُوجد، وهكذا تجدُ التاريخَ يشمل أموراً كثيرة.

والذي يكتب في بابٍ يُذَكِّرُ ويُشكِّرُ، ولا يَقِفُ عنده ونقول: «لماذا ترك كذا وكذا؟»، وإنما علينا أن نبدأ نحن من حيث انتهى غيرُنا، ويكونَ عملُنا قائماً على طريقة المُعاقبة أو التَّعاقب الذي تحدَّث عنه العالمُ المُلهمُ حمَدُ بنُ إبراهيم بن سليمان الخطَّابي، وأراد أن يبدأ الثاني من حيث انتهى الأوَّل وليس من حيث بدأ الأوَّل<sup>(١)</sup>.

وقد أجمع أهل العلم على أنَّ عبد القاهر الجرجاني هو مؤسس علم البلاغة، والواقع التاريخي يقول ذلك، وليس لأحد أن يُخالف فيه؛ لأنَّ الذي صار إليه هذا العلم بعد عبد القاهر غيرُ الذي كان عليه هذا العلم قبله.

لقد تسانَدَتْ جهودٌ كثيرةٌ وتعاونت وتضامَّت في تأسيس علم النحو، وتسانَدَتْ وتضامَّت وتعاونت جهودٌ كثيرةٌ في تأسيس علم الفقه، ثمَّ كان

(١) تحدَّث الخطَّابي عن مذهب «التَّعاقب» في سياقٍ نَعِيه على مَنْ سبقوه طريقتهم في التَّصنيف في غريب الحديث؛ إذ قال بعد أن عدَّد جمْعاً من هذه المؤلَّفات: «...إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الْكُتُبَ عَلَى كَثْرَةِ عَدِّهَا إِذَا حُصِّلَتْ كَانَتْ كَالْكِتَابِ الْوَاحِدِ؛ إِذْ كَانَ مُصَنَّفُوهَا لَمْ يَقْصِدُوا بِهَا مَذْهَبَ التَّعاقبِ كَصَنِيعِ الْقُتَيْبِيِّ فِي كِتَابِهِ، إِنَّمَا سَبَّلَهُمْ فِيهَا أَنْ يَتَوَالَوْا عَلَى الْحَدِيثِ الْوَاحِدِ فَيَعْتَوِرُوهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَتَبَارَوْنَ فِي تَفْسِيرِهِ، يَدْخُلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ شَرْطِ الْمَسْبُوقِ مِنْهُمْ أَنْ يُفَرِّجَ لِلْسَّابِقِ عَمَّا أَحْرَزَهُ، وَأَنْ يَقْتَضِبَ الْكَلَامَ فِي شَيْءٍ لَمْ يُفَسِّرْ قَبْلَهُ، عَلَى شَاكِلَةِ مَذْهَبِ ابْنِ قُتَيْبَةَ وَصَنِيْعِهِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي عَقَّبَ بِهِ كِتَابَ أَبِي عُبَيْدٍ»، غريب الحديث ١ / ٤٩ - ٥٠.

أَنْ فَتَحَ اللهُ عَلَى هَذَا الْجُرْجَانِيِّ الْعَرِيقِ وَأَسَّسَ وَحَدَهُ عِلْمًا مِنْ أَجْلِ عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَشْرَفِهَا، وَهَذَا مِمَّا لَا مُنَازَعَةَ فِيهِ، وَهَذَا يَجْعَلُ عَمَلَنَا فِي دِرَاسَةِ نَشْأَةِ هَذَا الْعِلْمِ أَيْسَرَ؛ لِأَنَّا نَبْحَثُ عَنِ الَّذِي كَانَ بَيْنَ يَدَيْ هَذَا الرَّجُلِ وَحَدَهُ وَهُوَ يَنْهَضُ بِأَجْلِ مَا يَنْهَضُ بِهِ بَشَرٌ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ، وَهُوَ صِنَاعَةُ عِلْمٍ شَرِيفٍ.

أَمْرَانِ لَا بُدَّ مِنْ طُولِ النَّظَرِ فِيهِمَا:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: حَصِيلَةُ مَا كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ كَلَامِ عُلَمَاءِ هَذَا الشَّانِ.

وَالثَّانِي: قُدْرَتُهُ هُوَ، وَطَبْعُهُ هُوَ الَّذِي أَعَانَهُ عَلَى أَنْ يَسْتَخْرِجَ مِنْ كَلَامِ السَّلَفِ مَا اسْتَخْرَجَ.

وَهَذَا الْأَمْرُ الثَّانِي كَانَتْ لَهُ آثَارُهُ الْوَاضِحَةُ فِي كِتَابَةِ عَبْدِ الْقَاهِرِ؛ تَرَى ذَلِكَ فِي حَدِيثِهِ الْمُسْتَفِيزِ عَنْ مَبْنَى الطَّبَّاعِ وَمَوْضُوعِ الْجِبِلَّةِ، وَاسْتَخْرَاجِ كَثِيرٍ مِنْ أَصُولِ هَذَا الْعِلْمِ مِنْ هَذِهِ الطَّبَّاعِ وَهَذِهِ الْجِبِلَّةِ، وَكَأَنَّهُ يَرِبُطُ أَصُولَ هَذَا الْعِلْمِ بِهَذِهِ الطَّبَّاعِ، وَيَقُولُ لَنَا: إِنَّهَا سَتَتَغَيَّرُ إِذَا تَغَيَّرَتْ هَذِهِ الطَّبَّاعِ وَتَغَيَّرَتْ هَذِهِ الْجِبِلَّاتُ، وَهَذَا لَنْ يَكُونَ؛ لِأَنَّهَا مِنْ سُنَنِ اللَّهِ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا؛ فَالْإِنْسَانُ مِنْذُ أَنْ خُلِقَ يُحِبُّ الْحُسْنَ وَيَكْرَهُ الْقُبْحَ. هُنَاكَ نَصَّانِ مُهِمَّانِ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُصَحِّحَ فَهَمَ نَشْأَةِ هَذَا الْعِلْمِ إِلَّا بِوَضْعِهِمَا أَمَامَ عُيُونِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

النَّصُّ الْأَوَّلُ يَصِفُ فِيهِ عَبْدُ الْقَاهِرِ كَلَامَ سَلَفِهِ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا فِي هَذَا الْعِلْمِ، وَأَنَّ حَدِيثَهُمْ عَنِ الْمُرَادِ بِالْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ كَانَ حَدِيثًا غَامِضًا جَدًّا، وَكَذَلِكَ حَدِيثُهُمْ فِي بَيَانِ حُسْنِ مَا اسْتَحْسَنُوا مِنَ الشُّعْرِ وَغَيْرِهِ.

ونحن نعلمُ أن الحديثَ عن المراد بالبلاغةِ كان أكثره يُقال في مسألة الإعجاز، أمّا الحديثُ عن وَصْفِ الحُسْنِ فقد كان يُقال في الكلام كَلَّه. يذكُر عبدُ القاهر أنَّ علماءنا الذين تكلموا في هذا أو ذاك كان كلامُهم شديدَ الغموض، لا يفهمُهم إلّا مَنْ كان في طبقتهم، وكانَّهم كانوا يتكلمون بلُغَةٍ خاصَّةٍ بهم، وقد بلغَ إحساسُه بهذا المعنى غايته حين قال: «وكانَّه كان بسلاً حراماً أن يفهمَ عنهم غيرُهم»<sup>(١)</sup>، وفي كل بابٍ من أبواب العلم يُكرِّر الشَّكوى مِنْ غُمُوضِ الكلام فيه.

وقد افتتح عبدُ القاهر كلامَه في أبواب العلم في كتاب الدلائل بهذا النَّصِّ؛ قال رَحِمَهُ اللهُ: «ولم أزل منذ خَدُمْتُ العلمَ أنظرُ فيما قاله العلماء في معنى (الفصاحة) و(البلاغة) و(البيان) و(البراعة)، وفي بيان المَعْرِى من هذه العبارات وتفسيرِ المراد بها، فأجدُ بعضَ ذلك كالرَّمْزِ والإيماء، والإشارة في خفاء، وبعضُه كالتَّنبُّيه على مكان الخَبِيِّ لِيُطْلَب، ومَوْضِعِ الدَّفِينِ لِيُبْحَثَ عنه فيُخْرَج، وكما يُفْتَحُ لك الطريقُ إلى المطلوب لِيَسْلُكَه»<sup>(٢)</sup> انتهى كلامه.

(١) «البَّسْلُ»: الحَرَامُ، وَمِنْ معانيه: «الكَرَاهَةُ، وَالْفَظَّاعَةُ، وَالشَّدَّةُ»، يُنْظَرُ: المحكم والمحيط الأعظم (ب س ل).

وَنَصُّ كلام الإمام عبد القاهر: «فإنَّك إذا قرأتَ ما قاله العلماء فيه وجدتَ جُلَّه أو كُلَّه رمزاً ووَحْيًا، وكنايةً وتعريضًا، وإيماءً إلى الغرض مِنْ وَجْهِ لا يَقْطُنُّ له إلّا مَنْ غَلْغَلَ الْفِكْرَ وَأَدَقَّ النَّظَرَ، وَمَنْ يَرْجِعُ مِنْ طَبْعِهِ إلى أَلْمَعِيَةِ يَقْوَى معها على الغامِض، وَيَصِلُ بها إلى الخَفِيِّ، حتَّى كأنَّ بسلاً حراماً أن تتجلى معانيهم سافرةً الأَوْجُه لا يُقَابَ لها، وباديةً الصَّفْحَةِ لا حِجَابَ دُونَهَا، وَحَتَّى كأنَّ الإفصاحَ بها حراماً، وذَكَرَها إلّا على سبيل الكناية والتَّعريض غيرُ سائغ»، دلائل الإعجاز، ص ٤٥٥.

(٢) دلائل الإعجاز، ص ٣٤.

وهذا هو التُّراثُ البلاغيُّ الذي كان بين يديَّ عبد القاهر، وهو حَصِيلَةُ أربعةِ قرون، ولك أن تقول: هذا هو علمُ البلاغةِ إلى زَمَنِ عبد القاهر، وهذه هي الرُّموزُ والإشاراتُ التي ما زال عبدُ القاهر يُحاوِرُها ويُداورُها حتَّى تركها لنا في كتابَيْهِ الجليلَيْن «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز».

والمُهمُّ أن نُرَاجِعَ كلامَه في هذا التُّراثِ أو في هذه البلاغةِ قبلَه؛ لأنَّ هناكَ فَرْقًا بين كلامٍ هو كالرَّمزِ والإيماء، وكلامٍ هو إشارةٌ إلى مكانِ الخَبِيِّ لِيُطَلَّبَ؛ فنحنُ أمامَ الرَّمزِ والإيماءِ نحاولُ فَهْمَ هذا الرَّمزِ وهذا الإيماء، وهذا شيءٌ والقولُ بأنَّ هنا خَبِيئًا عليك أن تستخرِجَه شيءٌ آخر؛ لأنك إذا استخرجتَه لم يَعدْ غامضًا ولا رمزًا ولا إشارة.

وقد عُيِّنَتْ بهذا منذ قراءتي الأولى للشيخ، ووَجَدْتُ أكثرَ كلامِ العلماءِ مِنْ نَوْعِ الإشارةِ إلى مكانِ الخَبِيِّ؛ لأنَّ الذي يقولُ لي: «هذا جيِّدٌ حَسَنٌ» أو: «هذا أجوَدُ وأحسَنُ»، يقولُ لي: «ابحثُ فيه وستَجِدُ الجَوْدَةَ والحُسْنَ، أو الأجوَدَ والأحسَنَ، وهذا الحَسَنُ وهذا الأحسَنُ هو الخَبِيُّ الذي عليك أن تستخرِجَه»<sup>(١)</sup>، وكثيرٌ مِنْ كلامِ أبي العباسِ مِنْ هذا الباب.

(١) شُغِلَ شيخنا كثيرًا بهذه القضية، ولم يكتفِ بالتَّنْظِيرِ لها وإنما أَتْبَعَه تطبيقًا؛ فبحثَ في الحَسَنِ والأحسَنِ والجَيِّدِ، واستخرجَ منها سِرَّ الحُسْنِ وسِرَّ الأحْسَنِ وسِرَّ الجَوْدَةِ، وكتبَ في ذلك كتابًا كبيرًا سَمَّاه: «من التُّراثِ النُّقْديِّ»، وقالَ في مقدمته (ص ١٠): «كُتِبَ هؤلاءُ النُّقَّادُ مليئَةً بالشُّعْر الذي استحسَنوه، وليسَ فيها شيءٌ عن سِرِّ استحسانهم للذي استحسَنوه، وهذا يعني أن سِرَّ استحسانهم ساكِنٌ في هذا الشعر؛ فكان شُغْلِي الأكثرُ هو البحثُ عن هذا الحاضرِ الغائب، وهذا أَغْمَضُ ما في الشُّعْر، وأَكْرَمُ ما في الشُّعْر، ولم أعرفَ نَفْعًا يَنْفَعُ الجيلَ أكثرَ من أن نُقَرِّبَه إلى سِرِّ استحسانِ البيانِ إذا غَمَضَ علينا أن نضعَ يده على سرِّ الاستحسان».

ولو قال قائل: إِنَّ كُلَّ عَمَلٍ عبد القاهر هو شَرْحٌ للرُّمُوزِ والإشاراتِ وَبَحْثٌ عن الخَبِيِّ؛ لِيُخْرِجَ، لَمْ يَكُنْ مَخْطِئًا، وَالشَّارِحُ الْحَقُّ هُوَ الَّذِي يُضَيِّفُ إِلَى الْمَشْرُوحِ إِضَافَاتٍ لَا تُخْرِجُهُ مِنْ بَابِهِ، وَالْوُقُوفُ عِنْدَ بَيَانِ مِرَادِ الْمُصَنِّفِ خُطْوَةٌ، وَإِضَافَةٌ مَا يُثِيرُهُ بَيَانُهُ فِي نَفْسِنَا خُطْوَةٌ ثَانِيَةٌ، وَهِيَ الَّتِي يَتَحَرَّكُ بِهَا الْعِلْمُ إِلَى الْأَمَامِ، وَالْوُقُوفُ عِنْدَ الْخُطْوَةِ الْأُولَى، الَّتِي هِيَ بَيَانُ مِرَادِ الْمُصَنِّفِ، عَمَلٌ جَيِّدٌ، وَلَكِنَّهُ دَاخِلٌ فِي بَابِ «مَحَلِّكَ سِرٍّ»<sup>(١)</sup>.

وَإِذَا كَانَتْ نَشْأَةُ الْبَلَاغَةِ فِي خُطُوتِهَا الْأَوْسَعِ فِي عَمَلِ عَبْدِ الْقَاهِرِ مُؤَسَّسَةً عَلَى شَرْحِ الْمُعْجَمِ الْبَلَاغِيِّ الْغَامِضِ - كَانَ إِهْمَالُ هَذَا الْمُعْجَمِ وَالسُّكُوتُ عَنْ مَصَادِرِهِ إِهْمَالًا وَسُكُوتًا عَمَّا لَا يَجُوزُ إِهْمَالُهُ وَالسُّكُوتُ عَنْهُ، وَكَانَ أَيْضًا إَغْمَاضًا لِعَامِلٍ أَسَاسِيٍّ فِي تَارِيخِ الْعِلْمِ.

وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْتَخْرِجَ مِنْ كِتَابِ «الْكَامِلِ» جُزْءًا كَبِيرًا مِنْ هَذَا الْمُعْجَمِ الْغَامِضِ، وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُولَ إِنَّ أَبَا الْعَبَّاسِ كَانَ يُخَاطِبُ بِهَذَا مَنْ هُمْ فِي طَبَقَتِهِ، وَكَأَنَّهُ كَانَ بَسَلًا حَرَامًا أَنْ يَفْهَمَ عَنْهُ غَيْرُهُمْ، وَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ «الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ»، وَلَكِنَّ «الْبَيَانَ وَالتَّبْيِينَ» أَخَذَ بَعْضُ حَقِّهِ فِي تَارِيخِ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الْجَاحِظَ كَانَ يَلْفِتُ عُيُونَ الدَّارِسِينَ لِلشُّعْرِ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ يَلْفِتُهُمْ أَبُو الْعَبَّاسِ الَّذِي كَانَ أَدِيبًا غَلَبَ عَلَيْهِ النَّحْوُ فَعُرِفَ بِهِ، وَكَانَ الْجَاحِظُ أَدِيبًا لَمْ يَغْلِبْ عَلَيْهِ النَّحْوُ فَلَمْ يُعْرِفْ بِهِ.

---

(١) «مَحَلِّكَ سِرٍّ» تعبيرٌ معناه: «السَّيْرُ فِي وَضْعِ الثَّبَاتِ»، وَالسَّيْرُ فِي وَضْعِ الثَّبَاتِ لَا يُتَّبَعُ تَقْدَمًا، بَلْ يُسَلِّمُ إِلَى نَقِيضِهِ، كَمَا أَنَّ فِيهِ اسْتِصْحَابًا لِلْمَسْقَةِ الَّتِي لَا نَفْعَ فِيهَا وَلَا فَائِدَةَ مِنْهَا.

## رموز عبد القاهر وشرح التلخيص

وقبل أن أدعَ هذا النصَّ وما يتعلَّقُ به أُشيرُ إلى حقيقة غائبة عن كثيرٍ من الناس؛ هي أننا أَلِفْنَا أن نَمْدَحَ بلاغةَ عبدِ القاهر وأن نَعِيبَ بلاغةَ السَّكَّاكِيِّ وشُرَّاحِ «التَّلْخِصِ»، وغَفَلْنَا عن حقيقةٍ لا شكَّ فيها؛ هي أن البلاغةَ بدأتْ بالرُّمُوزِ والإشاراتِ، ثم صَيَّرَ عبدُ القاهر هذه الرُّمُوزَ وهذه الإشاراتِ أصولاً علميةً واضحة، ثم جاء السَّكَّاكِيُّ ووَضَعَ هذه الأصولَ في مَعَاقِدٍ، كما قال<sup>(١)</sup>، ثم جاء الخَطِيبُ ولَخَّصَ هذه الأصولَ ذاتَهَا في مَتْنِ «التَّلْخِصِ»<sup>(٢)</sup>، ثم جاء الشُّرَّاحُ وشرحوها في شُرُوحِ التَّلْخِصِ، ثم جاء أصحابُ الحَوَاشِيِ وعلَّقوا على هذه الشُّرُوحِ؛ كالسَّيِّدِ الشَّرِيفِ<sup>(٣)</sup>، ثم جاء أصحابُ التَّقَارِيرِ وتَعَقَّبُوا هذه الحَوَاشِيِ؛ كالعلامةِ السَّيَّالْكُوتِيِّ<sup>(٤)</sup>.

(١) قال السَّكَّاكِيُّ في أوَّلِ القِسْمِ الثَّالِثِ من «مِفْتَاحِ العلوم»: «الْقِسْمُ الثَّالِثُ مِنَ الْكِتَابِ فِي عِلْمِي الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ، وفيه مَقْدَمَةٌ لِبَيَانِ حَدِّي الْعِلْمَيْنِ وَالْعَرْضِ فِيهِمَا، وَفَصْلَانِ لَضَبْطِ مَعَاقِدِهِمَا وَالْكَلَامِ فِيهِمَا»، وَفَسَّرَ السَّعْدُ التَّفْتَازَانِيَّ «المعاهد» بقوله: «وَالْمُرَادُ بِالْمَعَاقِدِ: مَا يَتَّصِلُ بِهِ الْمَقَاصِدُ، وَتَرْتَبُطُ بِهِ أَشَدُّ ارْتِبَاطٍ، حَتَّى يَجْرِيَ مَجْرَى الْأَجْزَاءِ مِنْهَا؛ فَلِذَا جَعَلُوهَا عِبَارَةً عَنِ الْمَوْضُوعَاتِ وَالْمَبَادِي»، شرح مِفْتَاحِ الْعُلُومِ لِلتَّفْتَازَانِيِّ ١/ ١١٤، ١٢٠.

(٢) قال الخَطِيبُ الْقَزَوِينِيُّ في فَاتِحَةِ «تَلْخِصِ الْمِفْتَاحِ»، بعد التَّنْوِيهِ بـ«مِفْتَاحِ العلوم» والثَّنَاءِ عَلَيْهِ: «... وَلَكِنْ كَانَ غَيْرَ مَصُونٍ عَنِ الْحَشْوِ وَالتَّطْوِيلِ وَالتَّعْقِيدِ، قَابِلًا لِلِاخْتِصَارِ، مُفْتَقِرًا إِلَى الْإِيضَاحِ وَالتَّجْرِيدِ، أَلْفَتْ مُخْتَصَرًا يَتَضَمَّنُ مَا فِيهِ مِنَ الْقَوَاعِدِ، وَيَشْتَمِلُ عَلَى مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَمْثَلَةِ وَالشُّوَاهِدِ، وَلَمْ أَلْ جُهْدًا فِي تَحْقِيقِهِ وَتَهْذِيبِهِ، وَرَبَّنْتَ تَرْتِيبًا أَقْرَبَ تَنَاوُلًا مِنْ تَرْتِيبِهِ، وَلَمْ أَبْلُغْ فِي اخْتِصَارِ لَفْظِهِ تَقْرِيْبًا لِعَاطِيهِ، وَطَلَبًا لِتَسْهِيلِ فَهْمِهِ عَلَى طَالِبِيهِ»، تلخيص المفتاح، ص ٢٢ - ٢٣.

(٣) هو: عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ، المعروف بالشَّريفِ الْجُرْجَانِيِّ، فيلسوفٌ، مِنْ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ بِالْعَرَبِيَّةِ، لَهُ نَحْوُ خَمْسِينَ مُصَنَّفًا، مِنْهَا حَاشِيَةٌ عَلَى كِتَابِ «الْمُطَوَّلِ»، وَهُوَ شَرْحُ السَّعْدِ التَّفْتَازَانِيِّ عَلَى «تلخيص المفتاح»، تُوْفِيَ سَنَةَ ٨١٦ هـ، يُنْظَرُ: الْأَعْلَامُ لِلزَّرْكَلِيِّ ٥/ ٧.

(٤) هو: عَبْدُ الْحَكِيمِ بْنُ شَمْسِ الدِّينِ الْهِنْدِيُّ السَّيَّالْكُوتِيُّ، فَاضِلٌ، مِنْ أَهْلِ سَيَّالْكُوتِ التَّابِعَةِ لِلْأَهْوَرِ بِالْهِنْدِ، لَهُ تَأْلِيفٌ، مِنْهَا حَاشِيَةٌ عَلَى «الْمُطَوَّلِ»، تُوْفِيَ سَنَةَ ١٠٦٧ هـ، يُنْظَرُ: الْأَعْلَامُ لِلزَّرْكَلِيِّ ٣/ ٢٨٣.



وهكذا تقلبت هذه البلاغة - وأصلها الرُّمُوزُ والإشارات - في هذه المراحل، والحقيقة هي التي ترى فيها التقديم يُفيد العناية عند عبد القاهر، الذي هو أولهم، وعند سُراح التَّلْخِصِ والشيخ الشَّرْبِينِي<sup>(١)</sup>، الذي هو آخرهم، وقُلْ مثل ذلك في التعريف والتَّنكير، والفَصْل والوَصْل، والإيجاز والإطناب، وكلُّ أبواب المجاز: الأَصْل العِلْمِيّ واحدٌ وطريقة التَّنَاول مختلفةٌ.

وليس عندنا بلاغةٌ يمكن أن تُسمَّى «بلاغة السَّكَاكِي» وأخرى «بلاغة الزَّمْخَشَرِي» وثالثة «بلاغة الخطيب»؛ لأنَّ البلاغة واحدةٌ وأساليب الإبانة عنها مختلفة، ولا شكَّ أنَّ هناك اختلافًا بين هذه الكتب التي تُعالج علمًا واحدًا؛ كاختلاف كُتُب علماء الشَّافعيَّة وعلماء المَالِكِيَّة والنُّحَاة.. إلى آخره، والفقه واحدٌ، والنحو واحدٌ، والبلاغة واحدةٌ.

النَّصُّ الثاني الذي هو ضرورةٌ في معرفة رسالة البلاغة، ومواطن وجودها، وكيف تُستثمر - وغيبَةُ هذا النَّصِّ تُفضي إلى الاضطراب في التعامل مع هذا العلم، وفي الكتابة عنه، وفي عَرْضِه لأجيال الأُمَّة - هذا النَّصُّ تراه كثيرًا في كلام عبد القاهر، وتراه غالبًا يذكُرُه في رؤوس الأبواب، ويدوِّرُ حول التَّذْكِيرِ الدَّائِمِ بأنَّ البلاغة لا تَهْدِينَا إلى معرفة الحَسَنِ والأَحْسَنِ، وإنَّما يَهْدِينَا إلى ذلك الطَّبْعُ، وليس في علومنا علمٌ إذا حَفِظْنَاهُ أعاننا على معرفة الفاضل والأفضل، وليس أمامنا في هذا إلا أن تَلْتَقِيَ طبائعنا مع الشُّعْرِ وجهاً لوجه من غيرِ أيِّ وسيطٍ بيننا وبينه.

(١) هو: عبد الرحمن بنُ مُحَمَّدٍ الشَّرْبِينِي، الفقيه الشَّافعيُّ الأصوليُّ، شيخ الأزهر بين سنتي ١٣٢٢هـ - ١٣٢٤هـ، ومن مؤلفاته: «فَيْضُ الْفَتْاحِ عَلَى حَوَاشِي سُراحِ تَلْخِصِ الْإِفْتِاحِ»، تُوفِّي سنة ١٣٢٦هـ يُنظر: الأعلام للزَّركَلِي ٣ / ٣٣٤.

وليس هذا كلام عبد القاهر وحده، وإنما هو أيضاً كلام الباقلاني الذي طارد وجود أي علم بيننا وبين القرآن لنذكر به الإعجاز، وأكد أنه لا يُذكر هذا الإعجاز إلا الطبع، وكذا قال السكاكي<sup>(١)</sup>.

والمهم أن هذا الطبع لا يجوز لنا الغفلة عن تثقيفه وتقويمه ودوام تغذيته، وهو لا يُغذى إلا بشيء واحد هو حُرُّ الكلام وفصيحه وبيّنه، وطول المراجعة فيه، وبعدهما يقول الطبع: «هذا حسنٌ وهذا أحسنٌ» تتقدّم البلاغة ولها رسالة واحدة لا تتعدّاها، وهي التّغلغل في الشعر الحسن لبيان الشيء الذي كان به حسنًا واستخراجه، والتّغلغل في الشعر الذي كان أحسنَ لاستخراج الشيء الذي به كان أحسن.

ويلاحظ أن الطبع الذي تفرّد بالقول بأن هذا حسنٌ وهذا أحسنٌ هو ذاته أكبر مُعينٍ للبلاغة بعد حضورها، وهو الذي به تتغلغل البلاغة في مطاوي البناء اللغوي ومخابئه لتستخرج الخبيء الذي به كان الأحسن أحسن.

فالطبع أولاً وهو وحده، والطبع ثانياً وهو المرافق للبلاغة والمُعين لها على أداء رسالتها، وإذا افتقدناه في الخطوة الأولى توقّفنا، وإذا افتقدناه في الخطوة الثانية ضلّلنا.

(١) ممّا قاله الباقلاني في ذلك:

- «وهذا طريق لا يتعدّر، وباب لا يمتنع، وكلّ يأخذ فيه مأخذاً ويقف منه موقفاً على قدر ما معه من المعرفة، وبحسب ما يُمثّله من الطبع»، إعجاز القرآن، ص ١١٢.

- «فإذا انضاف إلى التلاؤم حسنُ البيان وصحةُ البرهان في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز لمن كان جيّد الطبع وبصيراً بجواهر الكلام»، إعجاز القرآن ص ٢٧٠.

وقال السكاكي: «واعلم أن شأن الإعجاز عجبٌ؛ يُذكر ولا يُمكن وصفه، كاستقامة الوزن؛ تُذكر ولا يُمكن وصفها، وكالملاحة، ومُذكر الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلّا»، مفتاح العلوم، ص ١٩٦.

ذكرَ عبدُ القاهر ذلك صراحةً وَضَمَّنَا في أوَّل أبواب: التَّقْدِيم، والحَذْف، والفَصْل والوَصْل، وفُرُوق الخبر، ومن ذلك قوله في أوَّل باب التَّقْدِيم: «ولا تزال ترى شعراً يروُّك مَسْمَعُهُ، وَيَلْطُفُ لَدَيْكَ مَوْقِعُهُ، ثُمَّ تَنْظُرُ فَتَجِدُ سَبَبَ أَنْ رَأَيْتَ وَلَطُفَ عِنْدَكَ أَنْ قُدِّمَ فِيهِ شَيْءٌ، وَحَوْلَ اللَّفْظِ عَنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ»<sup>(١)</sup> انتهى كلام عبد القاهر، وهو قاطِعٌ في أَنَّ الشَّعْرَ يَروُّكَ مَسْمَعُهُ وَيَلْطُفُ لَدَيْكَ مَوْقِعُهُ والبلاغةُ بِمَعْزَلِ عَنْكَ، وليس بينك وبين الشَّعْرِ أيُّ وسيط.

### مواطن التَّجْوِيدِ فِي الشَّعْرِ هِيَ الْفُنُونُ الْبَلَاغِيَّةُ

ولا بُدَّ مِنْ أَنْ نَذْكُرَ أَنَّ مواطنَ الحُسْنِ فِي الشَّعْرِ هِيَ مَا نُسَمِّيْهَا «فَنُونًا بِلَاغِيَّةً»؛ كَاللَّفْظِ الَّذِي حُوِّلَ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَكَالتَّنْكِيرِ، وَالتَّعْرِيفِ بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ، وَمَجِيءِ الْوَائِ وَغِيَابِهَا، وَكُلُّ هَذِهِ الْفُنُونِ رَوَاكِدُ وَسَوَاكِينُ فِي الشَّعْرِ، وَإِذَا وَجَدْتَ فَنًّا بِلَاغِيًّا وَاحِدًا لَيْسَ مِنْ سَوَاكِينِ الشَّعْرِ فَلَا عَلَيْكَ إِذَا رَمَيْتَهُ فِي الْبَحْرِ، وَلِهَذَا يَحْرُصُ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى كُلِّ هَذِهِ الْفُنُونِ؛ لِأَنَّهَا هِيَ مَا هِيَاتُ الشَّعْرِ وَالْكَلَامِ الْعَالِي.

وَكُلُّ كِتَابٍ ذَكَرَ الْمُسْتَحْسَنَ مِنَ الشَّعْرِ وَالْبَيَانِ، وَعَقَّبَ عَلَى حُسْنِهِ بُلْغَةً غَامِضَةً - فِي الزَّمَنِ قَبْلَ عَبْدِ الْقَاهِرِ - هُوَ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي لَا يَجُوزُ الشُّكُوتُ عَنْهَا فِي دَرَاةٍ تَارِيخِ هَذَا الْعِلْمِ وَدَرَاةٍ حَاضِرِهِ أَيْضًا؛ لِأَنَّ كُلَّ دَرَاةٍ وَاعِيَةٍ لِلتَّارِيخِ هِيَ عَطَاءٌ لِلْحَاضِرِ، قَلَّ هَذَا الْعَطَاءُ أَوْ كَثُرَ، وَالتَّارِيخُ هُوَ الْمَصْبَاحُ السَّحَرِيُّ الَّذِي يُنِيرُ الْمُسْتَقْبَلَ.

## ما يدور حوله كتاب «الكامل»

والآن أبدأ بعد هذا التقديم اللازم في قراءة مقدّمة كتاب «الكامل»؛ لأنّ الكتّاب أجسامٌ والمقدّمات رؤوسُ هذه الأجسام، وفيها هَواجِسُها وخَواطِرُها وآمالُها وطُمُوحاتُها.

قال أبو العباس: «هذا كتابٌ أَلَفناه يَجْمَعُ ضُرُوبًا من الآداب؛ ما بين كلامٍ منشور، وشِعْرٍ مرصوف، ومَثَلٍ سائر، وموعظةٍ بالغة، واختيارٍ من خطبةٍ شريفةٍ ورسالةٍ بليغة.

والنيةُ فيه أن نُفسِّرَ كلَّ ما وَقَعَ في هذا الكتابِ مِنْ كلامٍ غريبٍ أو معنًى مُستَغْلِقٍ، وأن نُشرِّحَ ما يَعرِضُ فيه من الإعرابِ شرحًا وأقيًا؛ حتّى يكونَ هذا الكتابُ بنفسه مكثفًا، وعن أن يُرجَعَ إلى أحدٍ في تفسيره مستغنيًا، وبالله التّوفيقُ والحوُلُ والقوّة»<sup>(١)</sup> انتهى كلامه.

وهذا يعني أن أبا العباس يُعدُّ كتابًا مُكثفًا بنفسه للذّائقة البيانيّة التي لا يجوز أن تغيبَ عن دَرَسِ النّحو والبلاغة واللّغة، بل والفقه والتفسير.. إلى آخره، وهذه الذّائقة - كما قدّمنا - لا غِذاءَ لها إلا هذا البيانُ العالِي من الأدب، والحِكم، والأمثال.. إلى آخر ما ذكّر، ولا يَضمَنُ لها البقاء والسّداد والعافية إلا هذا البيانُ العالِي، وأنّ الإعرابَ واللّغة تَراهُما في هذا الكتاب وهما يَسُبحانِ في هذه الآداب العالِيّة، ويتحوّلان ليس إلى عِلْمٍ يُحفظُ فحسب، وإنّما إلى بيانٍ يُذاقُ وتلقّاه العقولُ والقلوبُ بالغِبطَةِ والأَرِيحِيّة، وهذا هو الطّريقُ الذي قدّم به علماؤنا لُغتنا إلى

◆ ﴿٤٠﴾ ————— ﴿الْمُسْتَكُونِينَ﴾ كَمَا الْكَلَامُ لِلْبَيْتِ ◆

الأجيال القادمة، ولا بُدَّ مِنْ ملاحظة أَنَّ هذا الضَّرْبَ من التأليف لا يُنتج تقويمَ اللِّسانِ فحسب، وإنْ كان هذا مُهمًّا جدًّا، وإنَّما ينقلُ إلى الجيل قِيمًا وأخلاقًا وتاريخًا وحضارة.

وكلُّ ما في اللغة من مضامين إنسانية عالية تُعبِّر عنها كلماتٌ مختصرة؛ مثل: الآداب، والحِكم، والموعظة البليغة، والخطبة الشريفة. فرُقٌ بين كُتُب تجرِّدُ اللغة من هذه المضامين التي تُربِّي النفوسَ، وتُكوِّنُ جيلاً يَعْقِلُ حضارته وثقافته وتاريخه، وتهتمُّ فقط بالقواعد التي تُجرِّدُ اللغة من كلِّ هذا، وبين كُتُبٍ تحمِلُ كلَّ هذا التراثِ الإنسانيِّ في شِعْرِها ونثرها والمُختارِ مِنْ آدابها وحِكمتها.

وأعتقد أن هذا هو سِرُّ نجاحهم في تربية الأجيال، وسِرُّ تخلفنا في هذا؛ لأننا عُنِينا بعلوم العربية أكثرَ من عنايتنا بالعربية نفسها، وسرنا على عكس ما ساروا عليه؛ لأن علمَ العربية كان في «الكامل» تابعًا للعربية نفسها، وحتى لا يحتاج قارئُ الآداب والحِكم والأمثال إلى من يُفسِّر له كلمة غريبة أو إعرابًا مشكلاً.

فرُقٌ بين مَنْ يُعلِّم اللغة على أنها نحوٌ وبلاغةٌ وَمَنْ يُعلِّم اللغة على أنها تاريخٌ وحضارةٌ وثقافةٌ وتجربةٌ أجيالٍ خلَّتْ، فيها صوابهم وخطئهم، وفيها آدابهم وقِيمهم، ولم نَعْرِفْ أجيالًا تلَقَّتْ هذه العربية الشريفة بالشكوى والتبرُّم إلا أجيالنا، لما قدَّمناها لهم في لغةٍ خَشِنَةٍ وقواعدَ قَطَعْنَاهَا عن أغصانها التي أثمرتها.

قلتُ إن کتاب «الکامل» زاخِرٌ بأمرین لهما شأنٌ أیُّ شأنٍ فی تاریخ البلاغة؛ الأول: الشَّعرُ الحَسَنُ المُختارُ الذی هو أوَّلُ خُطوةٍ فی الدَّرسِ البلاغی، وهو منه بمنزلةِ البَسْمَلَةِ فی القراءة. والثَّانی: کلامُ أبی العباس فی حُسْنِ الحَسَنِ، وهو مِن صُلْبِ المُعْجَمِ الغامضِ الذی هو کالرَّمزِ والإیماء، كما قال عبد القاهر، وهذان یجعلان السُّکوتَ عن هذا الکتاب فی التَّعْرِیفِ بجُذور الدِّراسة البلاغیَّة سُکوتًا لا یَحْسُنُ السُّکوتُ علیه.

وشیءٌ آخَرُ فی کتاب «الکامل»؛ هو أن أبا العباس کانت ذاکِرَتُهُ کأنها مُدَوَّنةٌ جلیلةٌ لِشَّعرِ العریبة، فکان إذا ذکَرَ بیتًا فی معنی توافَتْ علیه أبیاتٌ کثیرةٌ فی هذا المعنی، وهذه إحدى ضَوَالِّ الدَّارِسِ البلاغی؛ لأنه لیس فی البلاغةِ أکرمُ من أن یكون بین یدیک معنی واحدٌ تواترتْ علیه الصُّور، وکُلُّ صُورَةٍ هی صَنعَةٌ شاعر، وتحلیلُ الصُّورِ والمقارنَةُ بینها هو تحلیلُ لَصْنَعَةِ الشَّعر، ولو قلت: إن البلاغةَ لیسَتْ إلا دِراسةً لَصْنَعَةٍ صاحبِ البیان فی بیانهِ، لم تکن مخطئًا، وکان عبدُ القاهر؛ صاحبُ هذا العلم، شدیدَ الحَفَاوةِ بهذا الباب، ویرى أن الذین یَجهَلُونَهُ قد جَهلُوا البلاغةَ کُلَّها، وعَقَدَ له صفحاتٌ کُلُّها أبیاتٌ من الشَّعرِ حولَ مَعانٍ متشابهة، وأغری بِبَحْثِ ما بینها من تقارُبٍ وتباعُد.

ولو رَجَعْنَا إلى کتاب «الکامل» وأخرجنا منه هذه الأبواب، ودَرَسناها بابًا بابًا دراسةً یَقْظَةً، لکانَ لنا من کتاب «الکامل» جملةٌ من الکُتُبِ هی مِن نَفْسِ مِصادر الدِّراسة البلاغیَّة، ولستُ فی حاجةٍ -أیُّها القارئ- إلى أن أُنَبِّهَ إلى أن هذا مِنَ المسکوتِ عنه.

## علوم العرب في شعرها

ثم إن أبا العباس يفتح في الشعر باباً آخر هو من أهم أبواب المسكوت عنه، وإن كانت لا تدخل في علم البلاغة، وهو باب علم العرب الذي دُلُّوا عليه في شعرهم، وشعرهم هذا هو العلم الذي لم يكن لهم علم سواه، كما قال سيدنا عمر رضي الله عنه<sup>(١)</sup>، وعجيب جداً أننا تركنا هذا الباب مغلقاً مع أن سيدنا عمر نبه إليه، وفتح أبو العباس بابه.

إذا ذكر أبو العباس بيتاً من الشعر فيه ذكر ريح من الرياح أتبعه بغيره، ثم أخذ يستخرج من الشعر أنواع الرياح وجهات هبوبها وأزمنة هبوبها، وأن منها المبشرات بالمطر والخضب، ومنها المُنذرات بالجفاف والقحط، وما يتبع ذلك من أنواع السحاب، وأن منها كذا ومنها كذا، حتى يدخل بك في علم الأنواء وعقائد العرب في الأنواء، وحتى تراك أمام معلومات لا يجوز أن تترك هكذا للصدفة، وإنما تستقصى في الشعر وتُصنّف وتُقدّم من حيث هي باب من أبواب علم هذه الأمة في جاهليتها.

وقُلْ مثَل ذلك في الخيل وما تُمدح به وما تُعاب به وأوصافها حتى إنك لترى نفسك أمام معلومات عجيبة عن حوافر الخيل والفرق بين حوافر الجياد وحوافر غير الجياد، وقُلْ مثَل ذلك في الإبل، وأوصافها، وعراققتها.. إلى آخره.

وقديماً كتب الزمخشري كتاب «الجمال والأمكنة»، وهو ليس في الجغرافيا، وإنما هو في الأدب، وهذا يبدو غريباً وليس غريباً؛ لأنه ذَكَرَ

(١) نَصُّ مَقُولَةِ سَيِّدِنَا عُمَرَ كَمَا أوردَهَا ابْنُ سَلَامٍ وَابْنُ جُنَيٍّ: «كَانَ الشَّعْرُ عِلْمَ قَوْمٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عِلْمٌ أَصَحُّ مِنْهُ»، طَبَقَاتُ فُحُولِ الشُّعْرَاءِ ١/ ٢٤، وَالْخَصَائِصُ ١/ ٣٨٧.

الجبّال التي كَثُرَ ذِكْرُها في الشَّعر، وكأنه رَحِمَ اللهُ كان يُبَشِّرُ بما يُمكن أن يُسمّى: «الجغرافيا الأدبيّة» التي قلّما تَجِدُها عند أُمَّة الشَّعر التي هي أيضًا أُمَّة البداوة.

### المهمُّ جودة الكلام وليس المتكلم

كان علماؤنا يستحسنون القولَ لحُسْنِهِ هو مع صَرَفِ النَّظر عن قائله، ويستهجنون القولَ لهُجْنَةٍ فيه مع صَرَفِ النَّظر عن قائله، ولذلك كانوا يأخذون الحَسَنَ ممَّن يَرْضُونه وممَّن لا يَرْضُونه؛ فأخذوا مِن حِكْمَةِ الفُرسِ والهنود واليونان، كما أخذ المُعْتَزِلَةُ من الأشاعرة، وأخذ الأشاعرةُ من المُعْتَزِلَةِ، وأخذ أهلُ السُّنَّةِ من الشَّيعة، وأخذ الشَّيعةُ من أهلِ السُّنَّةِ، والأصلُ في كلِّ ذلك أن الحِكْمَةَ ضالَّةُ المؤمن، أنَّى وجدها أخذها، وقد بالغَ الناسُ في هذا المعنى وقالوا: «خُذُوا الحِكْمَةَ مِن أفواه المجانين».

والكُتُبُ مشحونةٌ بالكلام الجيّد الصّادرِ عن غير الجيِّدين، ولهذا لا تَجِدُ غِرابَةً إذا وجدتَ في كتاب «الكامل» شِعْرًا كثيرًا وأدبًا كثيرًا نقله أبو العبّاس عن أمثال: عِمْرانَ بنِ حِطّان، وهو من رؤوس الخوارج، ومِثْلُهُ نافعُ بنُ الأزرق، وقَطَرِيٌّ بنُ الفُجاءة.. وغيرهم، ولم يكن يَتَوَقَّعُ أن يأتيَ زمانٌ يُلامُ فيه على ذكر «الخوارج»، وإنّما كان يَتَوَقَّعُ أن يَطْلُبَ منه القارئُ مزيدًا من أخبارهم؛ لأن هذا المزيّدَ مِن حَقِّ العلم والتاريخ، فكان يعتذرُ عن أنه لم يُشَبِّعِ الكلامَ في أخبارهم ويقول: «وأخبارُ الخوارج كثيرةٌ طويلةٌ، وليس كتابنا هذا مُفردًا لهم، ولكنّا



نَذْكُرُ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا فِيهِ مَعْنَى وَأَدَبٌ، أَوْ شِعْرٌ مُسْتَطَرَفٌ، أَوْ كَلَامٌ مِنْ خُطْبَةٍ مَعْرُوفَةٍ مُخْتَارَةٍ<sup>(١)</sup>، وَكَانَ عِلْمَاؤُنَا يَذْكُرُونَ مِنْ آدَابِ الْأُمَمِ مَا فِيهِ مَعْنَى وَأَدَبٌ وَشِعْرٌ مُسْتَطَرَفٌ، وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ أَبْيَاتًا جَيِّدَةً لِأَحَدِ الْخَوَارِجِ فِي مَوْقِفٍ نَبِيلٍ لِهَذَا الْخَارِجِيِّ، وَكَانَ قَدْ أَسْرَهُ الْحَجَّاجُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُقَاتِلُهُ، فَلَمَّا قُدِّمَ مَعَ الْأَسْرَى لِقَتْلِهِ نَظَرَ إِلَيْهِ الْحَجَّاجُ وَذَكَرَ يَدًا لَهُ كَانَتْ عَلَى الْحَجَّاجِ فَعَفَا عَنْهُ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، وَبَعْدَ مُدَّةٍ أَرَادَ قَطْرِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ - وَكَانَ مِنْ شَيَاطِينِ الْخَوَارِجِ - أَنْ يُعَاوِدَ قِتَالَ الْحَجَّاجِ فَدَبَّ هَذَا الرَّجُلُ لِلْخُرُوجِ إِلَى قِتَالِ الْحَجَّاجِ، فَرَفَضَ الرَّجُلُ، وَقَالَ أَبْيَاتًا جَيِّدَةً أَكَّدَ فِيهَا مَوْقِفًا جَيِّدًا، وَالْأَبْيَاتُ هِيَ: [مِنْ الْكَامِلِ]

أَأَقَاتِلُ الْحَجَّاجَ عَنْ سُلْطَانِهِ      بِيَدٍ تُقَرُّ بِأَنَّهَا مَوْلَاتُهُ؟  
مَاذَا أَقُولُ إِذَا وَقَفْتُ إِرَاءَهُ      فِي الصَّفِّ وَاحْتَجَّجْتُ لَهُ فَعَلَاتُهُ؟  
وَتَحَدَّثَ الْأَقْوَامُ أَنَّ صَنَائِعًا      غُرِسَتْ لَدَيَّ فَحَنَظَلْتُ نَحْلَاتُهُ؟<sup>(٢)</sup>

وَقَدْ وَقَفَ عَبْدُ الْقَاهِرِ عِنْدَ بَلَاغَةِ قَوْلِهِ: « وَاحْتَجَّجْتُ لَهُ فَعَلَاتُهُ » وَبَرَاعَتِهِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ مَعْنَى لَمْ يَقُلْ فِيهِ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْهُ<sup>(٣)</sup>.

(١) الْكَامِلُ ٣ / ١٧٩.

(٢) تُنْسَبُ الْأَبْيَاتُ إِلَى عِمْرَانَ بْنِ حِطَّانٍ، وَقَدْ نَقَضَ ذَلِكَ الدُّكْتُورُ إِحْسَانُ عَبَّاسٍ؛ فَقَالَ: «إِنَّ عِمْرَانَ هَرَبَ مِنَ الْحَجَّاجِ وَظَلَّ مُخْتَفِيًا فِي عُمَانَ حَتَّى مَاتَ الْحَجَّاجُ»، وَذَهَبَ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ لَا تَتَّفِقُ مَعَ رُوحِ عِمْرَانَ وَسُلُوكِهِ، وَاسْتَضَوَّبَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَسَاكِرٍ مِنْ أَنَّهَا لِبَعْضِ الْخَوَارِجِ مِنْ أَصْحَابِ قَطْرِيِّ بْنِ الْفُجَاءَةِ، يُنْظَرُ: شِعْرُ الْخَوَارِجِ، ص ١٩٨، هَامِش ١.

(٣) قَالَ الْإِمَامُ عَبْدُ الْقَاهِرِ: «وَمَنْ هَذَا الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى بَيْتِ الْخَارِجِيِّ وَبَيْتِ أَبِي تَمَّامٍ فَلَا يَعْلَمُ أَنَّ صُورَةَ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ غَيْرُ صُورَتِهِ فِي هَذَا؟ كَيْفَ وَالْخَارِجِيُّ يَقُولُ: (وَاحْتَجَّجْتُ لَهُ فَعَلَاتُهُ)، وَيَقُولُ أَبُو تَمَّامٍ: (إِذْنًا لَهْجَانِي عَنْهُ مَعْرُوفَةٌ عِنْدِي)، وَمَتَى كَانَ (احْتَجَّ) وَ(هَجَا) وَاحِدًا فِي الْمَعْنَى؟»، دَلَالُ الْإِعْجَازِ، ص ٥٠٧.

وهذا هو الموقفُ العلميُّ والعقليُّ الصَّحيحُ، وإذا عَلَتْ أصواتُ مَنْ لا يَعْلَمُ فلا يجوزُ أنْ تَسْكُتَ أصواتُ مَنْ يَعْلَمُ؛ لأنَّ هذا ضارٌّ جدًّا ويؤدِّي إلى مَفْسَدَةٍ كبيرة.

وَمِنْ لَطِيفِ ذِكْرِ الْخَوَارِجِ أَنَّ سَيِّدَنَا مَعَاوِيَةَ كَاتِبَ وَحْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمَّا عَلِمَ بِخُرُوجِ الْخَوَارِجِ لِقِتَالِهِ طَلَبَ مِنْ سَيِّدِنَا الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - أَنْ يَتَوَلَّى قِتَالَهُمْ، فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ: «وَاللَّهِ لَقَدْ كَفَفْتُ عَنْكَ لِحْقَنِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَا أَحْسَبُ أَنَّ ذَلِكَ يَعْنِي أَفَاقَاتِلَ عَنْكَ قَوْمًا أَنْتَ أَوْلَى بِالْقِتَالِ مِنْهُمْ؟»<sup>(١)</sup>.

وقد نُشِرَتِ المَرْحُومَةُ عائِشةُ عبدِ الرَّحْمَنِ «مَسَائِلُ نَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ» الَّتِي سَأَلَ فِيهَا سَيِّدَنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ. وَ«نَافِعٌ» هَذَا رَأْسُ فِرْقَةٍ مِنَ الْخَوَارِجِ تُسَمَّى «الْأَزَارِقَةَ»؛ نِسْبَةً إِلَيْهِ، وَهَنَّاكَ فِرْقَةٌ أُخْرَى تُسَمَّى «الصُّفْرِيَّةَ»؛ نِسْبَةً إِلَى صُفْرَةِ أَلْوَانِهِمْ مِنْ كَثَرَةِ الْعِبَادَةِ، وَفِرْقَةٌ أُخْرَى تُسَمَّى «الْإِبَاضِيَّةَ»، وَهِيَ أَقْرَبُ الْفِرَقِ إِلَى فِكْرِ الْجَمَاعَةِ، هَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ<sup>(٢)</sup>، وَهُمْ أَهْلُ «عُمَانَ»، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي شِمَالِ أَفْرِيقِيَا، وَهُمْ جِزْءٌ مِنْ نَسِيجِ الْأُمَّةِ، يَعِيشُونَ مَعَ الْأُمَّةِ فِي سَلَامٍ وَمُحَبَّةٍ، وَعَلَى السَّادَةِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ التَّارِيخَ أَنْ يَسْكُتُوا عَمَّا لَا يَعْلَمُونَ، وَلَوْ سَكَتَ مَنْ لَا يَعْلَمُ لاسْتَرَحَ النَّاسُ.

وَالْغَرِيبُ أَنَّنِي أَسْمَعُ الَّذِينَ لَا يُحْسِنُونَ نُطْقَ أَسْمَاءِ الرِّجَالِ يَقُومُونَ وَيَقْعُدُونَ بِالْهَجُومِ عَلَى بَعْضِ الْفِرَقِ، وَقَدْ انْتَهَى زَمَانُهُمْ وَتَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ، وَيَا بَعْدَ مَا بَيْنَ خَوَارِجِ زَمَانِنَا وَخَوَارِجِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِبَاضٍ. رَحِمَ

(١) يُنْظَرُ: الْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ ٣ / ٩.

(٢) يُنْظَرُ: الْكَامِلُ ٣ / ٢٠١.

الله أبا العبّاس، وَرَحِمَ اللهُ عبدَ القاهر، وَرَحِمَ اللهُ عائشةَ عبد الرحمن،  
وَأَلْحَقْنَا بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِلْمَائِنَا كَرَامَةَ نَفْسٍ وَقُرَّةَ عَيْنٍ.

### خطأ تعليم اللُّغة وهي مُفَرَّغَةٌ مِنْ مَضَامِينِهَا

أَشْرْتُ إِلَى أَنْ أبا العبّاسَ لَمْ يَكُنْ يُعَلِّمُ الَّذِينَ يَكْتُبُ لَهُمُ اللُّغَةَ  
وَالنَّحْوَ وَالشَّعْرَ وَالْآدَابَ وَالْحِكْمَ فَحَسَبَ، وَإِنَّمَا كَانَ يَجْعَلُ ذَلِكَ سَبِيلًا  
إِلَى إِعْدَادِ أَجْيَالٍ تَحْفَظُ ثِقَاةَ الْأُمَّةِ وَتَارِيخَهَا، وَيُكُونُ هَذِهِ الْأَجْيَالُ  
مِنْ خِلَالِ التَّجَارِبِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْحَيَّةِ الَّتِي أودَعَتْهَا الْأُمَّةُ فِي آدَابِهَا  
وَحِكْمَتِهَا وَبَيَانِهَا الْمَنْثُورِ وَشِعْرِهَا الْمَرْصُوفِ، وَالْكُلُّ يَعْلَمُ سُلْطَانَ  
الْبَيَانِ عَلَى النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَقَدْ أَفْرَدَ ابْنُ رَشِيْقٍ سُلْطَانَ الشَّعْرِ عَلَى  
النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِالْحَدِيثِ<sup>(١)</sup>، وَكُنَّا يَحْفَظُ الْقَوْلَ الْمَنْسُوبَ إِلَى سَيِّدِنَا  
مَعَاوِيَةَ، وَأَنَّهُ حَدَّثَهُ نَفْسُهُ بِالْفِرَارِ حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ، وَمَا أَمْسَكَهُ إِلَّا  
قَوْلُ الشَّاعِرِ: [مَنْ الْوَافِر]

وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأْتُ وَجَاشْتُ مَكَانَكَ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي<sup>(٢)</sup>

(١) لَعَلَّ شَيْخَنَا يُرِيدُ بِآبِ «فَضْلِ الشَّعْرِ» الَّذِي صَدَّرَ بِهِ ابْنُ رَشِيْقٍ كِتَابَهُ، يُنْظَرُ: الْعُمْدَةُ فِي مُحَاسِنِ  
الشَّعْرِ وَآدَابِهِ وَتَقْدِيرُهُ ١٩ / ٢٧.

(٢) الْبَيْتُ لِعُمُرِ بْنِ الْإِطَنْبَةِ، وَخَبَّرَ سَيِّدُنَا مَعَاوِيَةَ أَوْرَدَهُ أَبُو الْعَبَّاسِ؛ قَالَ: وَيُرْوَى عَنْ مَعَاوِيَةَ أَنَّهُ قَالَ:  
اجْعَلُوا الشَّعْرَ أَكْثَرَ هَمِّكُمْ وَأَكْثَرَ آدَابِكُمْ؛ فَإِنَّ فِيهِ مَآثِرَ أَسْلَافِكُمْ وَمَوَاضِعَ إِرْشَادِكُمْ؛ فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي  
يَوْمَ الْهَرِيرِ وَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى الْفِرَارِ، فَمَا يَرُدُّنِي إِلَّا قَوْلُ ابْنِ الْإِطَنْبَةِ الْأَنْصَارِيِّ: [مَنْ الْوَافِر]

وَأَخَذِي الْحَمْدَ بِاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ	أَبْتُ لِي عَفَّتِي وَأَبَى بَلَائِي
وَضَرَبِي هَامَةَ الْبَطْلِ الْمُشِيحِ	وَأَجْشَامِي عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْسِي
مَكَانَكَ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي	وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأْتُ وَجَاشْتُ

قلتُ هذا لأذكّر بأثر الشُّعر المُختار والخُطبِ الشَّريفةِ والرَّسالةِ  
البليغةِ على تربيةِ الجيل وإعدادِهِ، وأنَّ عَرْضَنَا لِلُّغَةِ في دراسةِ النَّحوِ  
والبلاغةِ وإبعادِ كُلِّ هذا العطاءِ الرُّوحِيِّ الذي لا يُقدِّمه للجيل شيءٌ  
كما يُقدِّمه الشُّعرُ والبيان - أقولُ: إبعادُ هذا من الأخطاءِ الفادحةِ،  
ويَقيني أن كُلَّ المنهجِ الذي يَدْرُسُهُ أبناؤنا في مدارسنا وجامعاتنا ليس  
فيه مادةٌ تَدْخُلُ في تكوينِ الإنسان وتربيته وإعدادِهِ كما تَدْخُلُ مادةُ  
اللُّغةِ العربيَّةِ على الوجه الذي ذكره أبو العباس.

وإعدادُ الجيلِ ليس نافلةً، والذين يكتبون للجيل ليسوا مُتفضِّلين،  
وإنَّما هو واجبٌ؛ لأنَّهم حُرَّاسُ الأرض والعِرْضِ والدينِ والتَّاريخِ،  
وأيُّ تَهَاوُنٍ في هذا الإعدادِ إنَّما هو تَهَاوُنٌ في حِرَاسةِ الأرض والعِرْضِ  
والدينِ والتَّاريخِ، وهذا ممَّا لا يجوزُ أن يَغِيبَ عن كُلِّ من يودِّي  
درَسًا أو يَكْتُبُ كِتَابًا أو يَسُوسُ أَمْرًا، كما لا يجوزُ أن يَغِيبَ خَطَرُ  
أفَعى صهيون التي على حدودنا الشَّرقيَّةِ، وأنَّ التَّهاوُنَ في إعدادِ مَنْ  
يواجهها هو بمنزلةِ الخيانةِ العُظمى، وأخشى أن يكون خرابُ التعليمِ  
داخلًا في هذا البابِ من حيث نَدْرِي أو لا نَدْرِي، هما سواءٌ؛ لأنَّ مِثْلَ  
هذا يُقال فيه: [من الكامل]

إِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ أَوْ كُنْتَ تَدْرِي فَالْمُصِيبَةُ أَعْظَمُ<sup>(١)</sup>

(١) البيتُ في ديوانِ صَفِيِّ الدِّينِ الحَلِّيِّ، ص ٦٥، من قصيدةٍ له يُحرِّضُ فيها السُّلطانَ الصَّالِحَ  
سَمَسَ الدِّينَ على خِلاصِ مَالِهِ مِنْ لُصُوصٍ نَقَبُوا دَارَهُ وأخذوا ما بها، واخْتَمَوْا بَنَائِبَ لَهُ  
فَحَمَاهُمْ واستخدمَهُمْ لَدَيْهِ.

## التشبيه في كتاب «الكامل»

الآن أبدأ باب «التشبيه»، وأول ما أقول فيه هو توافق شواهد مع بقية شعر الكتاب؛ لأن كل هذه الشواهد فيها بعد كل الذي ذكرته شيء آخر؛ هو أنك يغمرك الإحساس وأنت تراجعها بأن أبا العباس لا يعلمك هذه الشواهد بكل ما تحمله من معانٍ وقِيم، وإنما يسكن كل هذا في ضمير نفسك، والبيان إذا سكن في ضمير النفس حرك فيها طاقاتها البيانية الهاجعة فيها والداخلية في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤]؛ لأنه ليس المراد بيان لغة معينة، وإنما هيأه - سبحانه - بقدرته لأن يكون ذا بيان، ومعاني الشعر تولد نظائرها في النفس، ومباني الشعر التي هي طرائق الإبانة تلهم النفس وتأخذ بيدها على مدرجة القدرة على الإبانة.

وكذلك يقال في التشبيه؛ ترى كثرة هذه الشواهد تبعث في النفس رغبة في أن تزيد المعاني بياناً؛ فتلحق المعنى المجرد بالصورة التي هي أوضح وأبين، وهكذا تجد في هذا الكتاب جانباً آخر؛ هو أنه لا يعلمنا العلم لنحصله ونعلمه ونتكلم به، وإنما يهيئنا أيضاً لإنتاجه، وفرق بين من يحصل العلم ومن يتهيأ لإنتاج العلم، وهذا الثاني هو طريق الإضافة، وطريق صناعة إنسان يتج معرفة، ونعماً هو، وهذا من أنفس النفيس المسكوت عنه.

فرق بين من يعيش حارساً يحرس بناء المعرفة، وبين من يضع لبنه في بناء المعرفة، أوائلنا علموا أجيالهم كيف يضعون اللبنة، ونحن نعلم أجيالنا كيف يحرسون اللبنة.

لم أقرأ في الكتب التي كُتِبَتْ قبلَ أبي العباس، ولا في الكتب التي كُتِبَتْ في زمانِ أبي العباس، صورًا للتشبيه أكثرَ من الصورِ التي في كتاب «الكامل»، وأكاد أقول: «ولا في الكتب التي كُتِبَتْ بعده»؛ لأنها وإن كانت زاخرةً بالدراسة فإنَّ كتاب «الكامل» يظلُّ أكثرَ زُخْرًا منها بالشواهد، والذي في باب «التشبيه» ليس كلُّ ما في كتاب «الكامل» من التشبيه؛ لأنه وهو يختار الشعرَ المُستحسنَ جاء كثيرٌ منه من صور التشبيه؛ لأنه أكثرُ كلام العرب، وما دُمْتُ في كلام العرب فأنت مع التشبيه، أردته أم لم تُردّه. يقول أبو العباس في أول باب التشبيه: «وهذا بابٌ طريفٌ نَصِلُ به هذا البابَ الجامعَ الذي ذكّرناه، وهو بعضُ ما مرَّ للعرب من التشبيه المصيب، وللمُحدثين بعدهم»<sup>(١)</sup> انتهى كلامه.

وهذا يعني أنَّ هذا الباب، الذي هو أوسعُ ما قرأنا، وُصِّلَ يَصِلُ بها أبو العباس هذا البابَ الجامع، ولهذا قلتُ إنه أوسعُ أبواب التشبيه في الكتب قبله وبعده، ولهذا أيضًا قلتُ إنَّ أبا العباس بهذه السَّعةِ يَطْبَعُ هذا الطريقَ البيانيَّ في نفوسنا ويَزْرَعُه فيها؛ لأن هذا ليس طريقٌ مَنْ يُعَلِّمُ فقط، وإنَّما هو طريقٌ مَنْ يَجْعَلُ المعرفةَ وسيلةَ تغييرٍ في النفس وتثقيفٍ للطَّبع، ويَجْعَلُهَا أيضًا دُرْبَةً وَمِرَانًا.

### المُبرِّدُ صنوُ الجاحظ

كان أبو العباسِ صنوُ الجاحظ، وكان صديقًا له، وكان يُحدِّثنا بما حدَّثه به الجاحظ، وكان «الكامل» صنوًا لـ «البيان والتبيين»؛ كلاهما

يُرَوِّي جَيْدَ الشُّعْر، ثُمَّ يَنْزِعُ الْجَاحِظَ نَحْوَ الْكِتَابَةِ وَيَكُونُ لَهُ مَذْهَبٌ فِي الْبَيَانِ وَمَدْرَسَةٌ، وَيَنْزِعُ أَبُو الْعَبَّاسِ نَحْوَ اللُّغَةِ وَالْإِعْرَابِ وَيَصِيرُ أَحَدَ شُيُوخِ الْمَذْهَبِ الْبَصْرِيِّ، وَيُظْهِرُ عَبْدُ الْقَاهِرِ بَعْدَ زَمَنِ فَيُكْثِرُ مِنْ ذِكْرِ الْجَاحِظِ فِي الدَّرْسِ الْبَلَاغِيِّ، وَيَكَادُ يُغْفِلُ أَبَا الْعَبَّاسِ، وَيُوسِّعُ عَبْدُ الْقَاهِرِ مَكَانَ الْجَاحِظِ وَمَكَانَتَهُ فِي تَارِيخِ الْبَلَاغَةِ، وَيُظِلُّ أَبُو الْعَبَّاسِ مَسْكُوتًا عَنْهُ، وَيَتَّبِعُ ذِكْرُ كِتَابِ «الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ» وَيَضِيقُ ذِكْرُ صُنُوهُ الَّذِي هُوَ «الْكَامِلُ»، وَلَيْسَ هَذَا غَبْنًا لِأَبِي الْعَبَّاسِ وَلَكِتَابِ «الْكَامِلِ»، وَإِنَّمَا هُوَ غَبْنٌ لِلْبَلَاغَةِ وَلِتَارِيخِهَا.

### حفاوة المبرد بامرئ القيس

بدأ أبو العباس الكلامَ في «التَّشْبِيهِ» بِبَيْتِ امْرِئِ الْقَيْسِ الْمَشْهُورِ: [من الطويل]

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا    لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

وكان أبو العباس شديد الحفاوة بامرئ القيس، وكثيراً ما يبدأ بشعره، وَيُنْقُلُ إِلَيْنَا وَصَفَ أَهْلِ الْأَدَبِ لَهُ بِأَنَّهُ «سَيِّدُ الشُّعْرَاءِ»، وَكُلُّ هَذَا حَقٌّ وَلَا يَجُوزُ غَيْرُهُ، وَمَنْ يَعْرِفُونَ الشُّعْرَ لَا يَقُولُونَ إِلَّا هَذَا، وَلَوْ بُعِثَ كُلُّ شُعْرَاءِ الْعَرَبِيَّةِ وَسُئِلُوا سَوْألاً وَاحِداً: «مَنْ سَيِّدُكُمْ؟» لَقَالُوا: «امْرِؤُ الْقَيْسِ».

ويقول أبو العباس في هذا البيت: «إِنَّ النَّاسَ أَجْمَعُوا عَلَى حُسْنِهِ؛ لِأَنَّهُ شَبَّهَ شَيْئًا فِي حَالَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ بِشَيْئَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ»<sup>(١)</sup>. وَلَحَظَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَنَّ

تأليف المعاني في البيت وترتيبها جاء على طريقة العرب الفصحاء الذين لهم فطنة وفيهم لقانة؛ لأن الشعر لم يقرن العناب بالرطب والحشف البالي باليابس، وإنما ترك ذلك لذكاء السامع.

### طرائق الفصحاء وطرائق المولدين

وكان هؤلاء الفصحاء يرون أن ما زاد على الإفهام يُعدُّ عيباً وتكراراً. قال أبو العباس: «العربي الفصيح الفطن اللقن يرمي بالقول: مفهومًا، ويرى ما بعد ذلك من التكرير عيباً»<sup>(١)</sup>، وهذه العبارة قريبة جدًا من عبارة بشار بن برد لما قال: [من الخفيف]

بَكْرًا صَاحِبِي قَبْلَ الْهَجِيرِ      إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

ف قيل له: لماذا لم تقل: «بكرًا فالنجاح في التبكير»؟، فقال: «إنما بنيتهما أعرابية، ولو قلت: (بكرًا فالنجاح في التبكير) لكان أشبه بكلام المولدين»<sup>(٢)</sup>.

و«الأعرابية» في كلام بشار هي التي قالها أبو العباس: «العربي الفصيح الفطن اللقن يرمي بالقول مفهومًا، ويرى ما بعد ذلك من التكرير عيباً». والتكرار هو الأشبه بكلام المولدين في عبارة بشار، والعربي الفطن اللقن يجعل بعض ما ينطق به منبهةً إلى معنى يريده ولا ينطق به؛ فقول بشار: «إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ» منبهةٌ إلى «بكرًا»، وعلم السامع بأن «العناب» هو الأشبه بـ«الرطب» و«الحشف البالي» أشبه بـ«اليابس» أغنى الفصيح اللقن عن أن يقول: «الرطب عناب، واليابس حشف بال».

(١) الكامل ٣ / ٢٥.

(٢) الذي سأل بشارًا هو خلف الأحمر، والخبر بتمامه في: دلائل الإعجاز، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.



ورأيتُ هذا الطَّرِيقَ يَكْثُرُ في كلامِ رسولِ الله ﷺ وأنا أُشْرَحُ أَحَادِيثَ مِنْ صَحِيحِ مُسْلِمٍ<sup>(١)</sup>، وَنَبَّهْتُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْأَعْرَابِيَّةِ وَكَلَامِ الْمُؤَلِّدِينَ فِي كَلَامِ بَشَّارٍ شَغَلَنِي كَثِيرًا؛ لِأَنَّهُ مِفْتَاحُ دَرَاةٍ تَطَوَّرَ أَسَالِيبُ الْعَرَبِيَّةِ، وَهُوَ جَانِبٌ صَعْبٌ وَمُمْتَعٌ وَمَسْكُوتٌ عَنْهُ، وَكُلُّ الَّذِي قِيلَ فِيهِ مِنَ التَّعْمِيمِ الْمُبْهَمِ.

وذكر أبو العباس قول امرئ القيس: [من الطويل]

إِذَا مَا الثُّرَيَّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ      تَعَرَّضَ أَثْنَاءِ الْوَشَاحِ الْمُفَصَّلِ

وعقب عليه بقوله: «وقد أكثرُوا في الثُّرَيَّا فلم يأتوا بما يُقَارِبُ هذا المعنى ولا بما يُقَارِبُ سُهولةَ هذه الألفاظ»<sup>(٢)</sup>.

وقد ذكر عبد القاهر هذا البيت، وَبَيَّنَ سِرَّ تَفَوُّقِهِ، وَوَضَعَ كَلَامَ عَبْدِ الْقَاهِرِ الْبَيِّنِ الْوَاضِحِ بِإِزَاءِ كَلَامِ أَبِي الْعَبَّاسِ الْمُبْهَمِ الْغَامِضِ يُبَيِّنُ لَنَا أَهَمَّ مَا يَجِبُ أَنْ نُبَيِّنَهُ، وَهُوَ تَطَوُّرُ الْفِكْرَةِ الْبَلَاغِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ رَمْزًا وَإِيمَاءً عِنْدَ سَلَفِ عَبْدِ الْقَاهِرِ، ثُمَّ صَارَتْ عِلْمًا يُنْصُّ عَلَيْهِ وَيُشَارُ إِلَيْهِ عِنْدَ عَبْدِ الْقَاهِرِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْعَمَلَ الْجَلِيلَ الَّذِي كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ شَاغِلًا لِأَقْلَامِ الْعُلَمَاءِ مَسْكُوتٌ عَنْهُ سُكُوتًا مُطْبِقًا.

وَرَاجِعُ كَلِمَةِ أَبِي الْعَبَّاسِ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَأْتُوا بِمَا يُقَارِبُ هَذَا الْمَعْنَى وَلَا بِمَا يُقَارِبُ سُهولةَ هذه الألفاظ تَجِدُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ لَيْسَ فِيهَا

(١) أَخْرَجَ شَيْخُنَا شَرْحَهُ هَذَا فِي كِتَابِ سَمَاءِ: «شَرْحُ أَحَادِيثَ مِنْ صَحِيحِ مُسْلِمٍ - دَرَاةٍ فِي سَمْتِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ»، وَقَدْ صَدَرَتْ طَبْعَتُهُ الْأُولَى سَنَةَ ١٤٣٦ هـ = ٢٠١٥ م.

(٢) الْكَامِلُ ٣ / ٢٦.

وصفٌ للمعنى، وليس فيها وصفٌ للألفاظ، وإنما بقيَ جلالُ المعنى في نفسِ قائل هذه الكلمة وهو أبو العباس، وسُهولةُ هذه الألفاظ أيضًا بقيت وصفاً قائماً في نفسِ أبي العباس. وتستطيع أن تقول إن هذا الكلام داخلٌ في وصفِ عبد القاهر لكلام سلفه، ليس في بابِ الرَّمزِ والإيماء وإنما في بابِ التَّنبيهِ إلى مكانِ الخبيءِ ليُبحثَ عنه فيُخرجَ. والذي في نفسِ أبي العباس هو في الشعر، وعلينا أن نبحثَ في الشعرِ عن هذين الخبيئين: المعنى الذي لم يُقارب، وسُهولة الألفاظ التي لم تُقارب؛ فماذا فعل عبد القاهر؟

### عبد القاهر يشرح رموز المبرد

ذَكَرَ عبد القاهر هذا البيتَ وهو يتحدث عن أسباب تأثير التَّمثيل، مع أن البيتَ ليس من التَّمثيل عند عبد القاهر، ولكنَّ السَّيَاقَ الذي ذكر البيتَ فيه هو سَبَبُ تأثير التَّشبيهِ بِقِسْمِيهِ، وهذا السَّبَبُ هو ما يُبنى عليه التَّشبيهُ مِنَ التَّفْصِيلِ؛ لأنَّ الشَّاعِرَ إِذَا فَصَّلَ فِي التَّشْبِيهِ رَاجَعَ وَدَقَّقَ فِي أَحْوَالِ الْمُشَبَّهِ بِهِ، وانتقى منها ما هو أشبهُ بالمشبه، وهو في هذه المراجعة قد يُعِدُّ بعضَ صفاتِ المُشَبَّهِ بِهِ؛ لِيُحَقِّقَ الشَّبهَ، وقد يَعتَبرُها مُجْتَمِعَةً؛ لأنَّ التَّشْبِيهِ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِاجْتِمَاعِهَا، والبيتُ من هذا النُّوعِ الثَّانِي؛ لأنَّ تَشْبِيَهُ الثُّرَيَّا بِالْوَشَّاحِ الْمُفْصَّلِ لَا يَتِمُّ إِلَّا إِذَا عَتَبْنَا كُلَّ أَحْوَالِ الْخَرَزِ الَّذِي فِي الْوَشَّاحِ وَاجْتِمَاعِهَا عَلَى الْهَيْئَةِ الْمَخْصُوصَةِ، فلو فَرضنا أن بعضَ خَرَزِ الْوَشَّاحِ لَمْ يَجْتَمِعْ عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ لَسَقَطَ التَّشْبِيهِ. ومعنى «تَعَرَّضَتْ الثُّرَيَّا»: مَا لَتْ نَحْوَ الْمَغِيبِ.

قال عبد القاهر: «وقد اعتبر فيه هيئة التفصيل في الوشاح، والشكل الذي يكون عليه الخرز المنظوم في الوشاح، فصار اعتبار التفصيل أعجب تفصيل في التشبيه»<sup>(١)</sup> انتهى كلام عبد القاهر.

وراجع قوله: «أعجب تفصيل في التشبيه»؛ لأنه يوشك أن يكون معنى «أنه لم يقارب»، وأن هذا التفصيل العجيب هو الخبيء في كلام أبي العباس، ثم راجع هذا مرة ثانية لتعلم كيف قرأ اللاحق كلام السابق، ولو اكتفى عبد القاهر بترديد عبارة أبي العباس، وأن الناس لم يقاربوا هذا المعنى ولم يقاربوا سهولة لفظه - لكان حال عبد القاهر كحالنا، ولكان واحداً من حراس المعرفة وليس من بناتها الذين علمهم سيدنا ﷺ أن يقول كل واحد منهم: «وأنا اللبنة»، كما قال ﷺ<sup>(٢)</sup>.

وحراس المعرفة كرام، كرام بلا ريب، ولكن هناك فرقاً بين من يحاول أن يخطو إلى الأمام ولو بمقدار إصبع، ومن هو راض بأن يتحرك في محله من غير أن يتجاوز مقدار إصبع.

### عناية المبرد بالتشبيه الممتد

اهتم أبو العباس بضرب من التشبيه هو كثير في الشعر، وخصوصاً الشعر الجاهلي، وكثير في الكتاب العزيز، وكثير في كلام سيدنا رسول الله ﷺ، وكثير أيضاً في كتابه الكتاب، وقرأت صوراً منه في أدب ابن

(١) أسرار البلاغة، ص ١٦٨.

(٢) سبق تخريجه.

المُقَفَّع<sup>(١)</sup>، خصوصًا في أدبه الذي ترجمه من الفارسيّة، وقرأتُ صورًا كثيرةً منه على لسان «بَيْدَبَا» الفيلسوفِ الهنديّ في كتاب «كَلِيلَةُ وَدِمْنَةُ» - هذا التَّشْبِيهُ هو التَّشْبِيهُ الذي يكون فيه المُشَبَّه به كثيرَ الأحوال والأحداث، حتّى إنّه لَيُمَثَّلُ أحيانًا قِصَّةً، سواء كانت هذه القِصَّةُ لحيوانٍ أو لطائرٍ أو لإنسان، وهو تشبیهٌ زاحِرٌ بالخُصُوبة والدَّلالات؛ لأنَّ كُلَّ حَدَثٍ في المُشَبَّه به لا بُدَّ أن يكونَ راجعًا لمعنى في المُشَبَّه، يُرادُ بهذا الحَدَثِ إظهارُ هذا المعنى، مِن ذلك عنايةُ أبي العباسِ بأبياتِ مجنونِ بني عامِرٍ<sup>(٢)</sup>، التي يقولُ فيها: [من الوافر]

كَأَنَّ الْقُلُوبَ لَيْلَةٌ قِيلَ يُغْدَى      بِلَيْلَى الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ  
قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرَكُ فَبَاتَتْ      تَجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ

وقد عَقَّبَ عليها أبو العباسِ بقوله: «وقد قال الشعراءُ قبلَه فلم يَبْلُغُوا هذا المِقْدَارَ»<sup>(٣)</sup>. وهذا هو الذي عَقَّبَ به على بيت امرئ القيس في الثُّرَيَّا، ولا يمكنُ أن يقولَ هذا الحُكْمَ إلَّا بعد أن يكون بين يديه أكثرُ ما قيلَ في هذا

(١) عبدُ الله بنُ المُقَفَّعِ مِن أئمَّةِ الكُتَّابِ، وأوَّلُ مَنْ عُنِيَ في الإسلامِ بترجمةِ كُتُبِ المَنَظُومِ، أصلُه من الفُرسِ، وُلِدَ في العراقِ مَجُوسِيًّا وأسلمَ، وَلِيَ كُتَابَةَ الدِّيوانِ للمنصورِ العباسيِّ، وترجمَ له كُتُبُ أرسطوطاليس الثلاثة في المنطق، وترجمَ عن الفارسيّة كتاب «كَلِيلَةُ وَدِمْنَةُ»، أَتَاهُم بِالزَّندَقَةِ فقتِلَ في البصرة سنة ١٤٢ هـ، يُنظر: الأعلام للزركلي ٤ / ١٤٠.

(٢) مَجْنُونُ بَنِي عامِرٍ هو قَيْسُ بنُ المُلَوَّحِ بنِ مَزَاحِمِ العامِرِيِّ، شاعِرٌ عَزَلَ، مِن المُتَمَيِّمين، لم يكنْ مَجْنُونًا وإنَّما لُقِّبَ بذلكَ لهيَامِهِ في حُبِّ لَيْلَى بنتِ سَعْدٍ، جُمِعَ بعضُ شعرِه في ديوانٍ، وصَنَّفَ ابنُ طُولُونٍ كتابًا في أخبارِه سَمَّاهُ: «بَسْطُ سَامِعِ المَسَامِيرِ في أخبارِ مَجْنُونِ بني عامِرٍ»، وكان الأَصْمَعِيُّ يُكَبِّرُ وجودَه، يُنظر: الأعلام للزركلي ٥ / ٢٠٨.

(٣) الكامل ٣ / ٢٩.

المعنى، وأن يكونَ نَظَرَ فيه بعين الناقدِ البصير، ثم رأى أنَّ ما قيلَ فيه لم يبلغ المقدارَ الذي بلغه مجنونُ بني عامر، وهذا الكلامُ من أبي العباس، الذي تعودنا على أن نقرأه وأن نكتبه، وراء أبواب من العلم مسكوت عنها، وإن كان أبو العباس وغيره وضعوا مفاتيح هذه الأبواب فيها، ولو ذهبنا نجمع ما يتاح لنا جمعه من التشبيهات التي دارت حول معنى واحد، ودرسناها واجتهدنا في أن نضع أيدينا على صنعة كل شاعر، وكيف اختلفت ضروب الصنعة وتنوعت فنون الخيال، وكيف نفت كل شاعر نفثه منه على هذا المعنى العام أو على هذا المعنى المطروح في الطريق، كما يقول الجاحظ، وكيف صار هذا المعنى معناه، وكيف صار يُنسب إليه - أقول: لو فعلنا هذا لكان بين أيدينا من ضروب التشبيه ما هو جدير بكل عناية، ولخرجنا به ممّا ألفناه إلى ضروب الصنعة التي هي العالم الأفسح للدرس البلاغي.

ذكر أبو العباس مع هذا المعنى قولَ عُرْوَةَ بْنِ حِزَامٍ: [من الطويل]

كَأَنَّ قَطَاةً عُلِقَتْ بِجَنَاحِهَا      عَلَى كَيْدِي مِنْ شِدَّةِ الْخَفَقَانِ<sup>(١)</sup>

وقول غيره: [من الكامل]

هَلَّا بَرَزْتَ إِلَى غَزَاةٍ فِي الْوَعَى      بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحِي طَائِرٍ<sup>(٢)</sup>

(١) الكامل ٣ / ٣٤.

(٢) الكامل ٣ / ٢٩، ونسبه أبو العباس لعِمْرَانَ بْنِ حِطَّانٍ.

قاله للحجاج، وقبله البيت السيّار:

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ      فَتَحَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

وقول غيره: [ من الوافر ]

وَلَا الْحَجَّاجُ عَيْنِي بِنْتِ مَاءٍ      ثَقُلْتُ طَرْفَهَا حَذَرَ الصُّقُورِ<sup>(١)</sup>

يَعْنِي أَنْ قَلْبَهُ يَتَقَلَّبُ فِي وَجَلٍ وَخَوْفٍ كَعَيْنِ طَائِرِ الْمَاءِ الَّذِي يُقَلَّبُ طَرْفَهُ هُنَا وَهُنَا حَذَرَ الصُّقُورِ الَّتِي تَرَصَّدُهُ.

وَأَقْرَبُ هَذَا إِلَى قَوْلِ مَجْنُونِ بَنِي عَامِرٍ قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ حِزَامٍ؛ لِأَنَّ كَلَامَهُمَا يَصِفُ قَلْبَهُ، وَفَرَقَ بَيْنَ قَلْبٍ صَارَ قَطَاةً عَزَّهَا شَرَكُ فَصَارَتْ فِي فَمِ الْمَوْتِ، وَقَلْبٍ عُلِقَتْ عَلَيْهِ قَطَاةٌ بِجَنَاحِهَا فَهُوَ يَخْفِقُ بِخَفَقِهَا. وَالشَّاهِدَانِ الْآخِرَانِ يَصِفَانِ قَلْبَ الْجَبَانِ، وَأَنَّ قَلْبَهُ فِي جَنَاحِي طَائِرٍ يَخْفِقُ فِي هَوَاءٍ مُتَسِّعٍ. وَهَذِهِ خُطُوطٌ عَامَّةٌ، وَالدَّرْسُ الْمُفَصَّلُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ، وَالَّذِي أُرِيدُهُ الْآنَ هُوَ الشَّاهِدُ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يُلْحَقْ.

وَأَوَّلُ مَا تَرَاهُ فِي كَلَامِ مَجْنُونِ بَنِي عَامِرٍ قَوْلُهُ: «قِيلَ يُغْدَى بِلَيْلَى الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ»؛ فَاتَّكَدَ بِذَلِكَ أَنَّ الْخَبَرَ لَمْ يَثْبُتْ، وَأَوَّلُ دَلِيلٍ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ: «قِيلَ»، يَعْنِي: هُوَ خَبَرٌ فَاعِلُهُ مَجْهُولٌ؛ فَهُوَ خَبَرٌ طَائِرٌ لَمْ يَثْبُتْ، وَلِذَلِكَ اعْتَبَرَ الْعُلَمَاءُ الْقَوْلَ الَّذِي يُقَالُ فِيهِ: «وَقِيلَ كَذَا» قَوْلًا ضَعِيفًا؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ «قِيلَ» صِغَةُ تَمْرِيطٍ. وَلَمْ يَكْتَفِ الشَّاعِرُ بِهَذَا، وَإِنَّمَا أَضَافَ إِلَيْهِ تَجْهِيلًا آخَرَ بِقَوْلِهِ: «يُغْدَى أَوْ يُرَاحُ»؛ فَالْقَائِلُ مَجْهُولٌ وَالزَّمَانُ

(١) الكامل ٣ / ٢٩، وَذَكَرَ أَبُو الْعَبَّاسِ بَيِّنَاتٍ قَبْلَهُ؛ هُوَ:

طَلَبْتُ اللَّهَ لَمْ يَمْنُنْ عَلَيْهِ      أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ أَبِي كَثِيرٍ

وَلَمْ يَنْسُبْهُمَا، وَهُمَا لِإِمَامِ بْنِ أَقْرَمَ التَّمِيمِيِّ، وَكَانَ الْحَجَّاجُ جَعَلَهُ عَلَى شَرْطِ أَبَانَ بْنِ مَرْوَانَ ثُمَّ حَبَسَهُ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَهُمَا، يُنْظَرُ: الْبَيَانُ وَالتَّبْيِينُ ١ / ٣٨٦.

أيضاً مجهول، وهذا تقديمٌ جيّدٌ جداً لوصفِ قلبه بما وصفه به، مع أنّ الخبرَ خبرٌ طائرٌ.

ولا أشكُّ في أن أبا العباس قرأ ما بعد هذين البيتين<sup>(١)</sup>، وهو من تمام التشبيه، وهو قوله: [من الوافر]

لَهَا فَرَّخَانٍ قَدْ تُرِكََا بِوَكْرِ      فَعُشُّهُمَا تُصَفُّهُ الرِّيحُ  
إِذَا سَمِعَا هُبُوبَ الرِّيحِ نَصَا      وَقَدْ أَوْدَى بِهَا الْقَدَرُ الْمُتَا  
فَلَا فِي اللَّيْلِ نَالَتْ مَا تَمَنَّتْ      وَلَا فِي الصُّبْحِ كَانَ لَهَا بَرَا

وهذا هو الذي يجعلُ المُشَبَّه به كأنَّه قِصَّة، ويجعله تشبيهاً مُمتدّاً، ويجعلُ له ثراءً يذهبُ أكثرُه بالاختصارِ والاكتفاءِ بالبيتين الأول والثاني، وإن كان قوله: «عَزَّهَا شَرَكُ فَبَاتَتْ تَجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ» فيه ما يكفي لأن يكونَ أفضلَ من التشبيهاتِ التي ذكرها أبو العباس في اضطراب القلب؛ لأنَّ القِطَاةَ هنا صارتُ في فَمِ الموتِ وهي تُجاذِبُ الشَّرَكَ مِنْ غيرِ أَمَلٍ فِي النِّجَاةِ، ودَلَّ على افتقارِ الأملِ بقوله: «قَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ»، وهذا يعني أنَّ الشَّاعِرَ استشعرَ الفَقْدَ والعَدَمَ لَمَّا قِيلَ: «يُعْدَى بِلَيْلَى أَوْ يُرَاحُ»، وليس في الصُّورِ الأخرى شيءٌ من هذا الإحساسِ، والشَّاعِرُ لم يَكْتَفِ بِأَنَّ القِطَاةَ تُجاذِبُ الشَّرَكَ رَغْبَةً فِي الحَيَاةِ وفِرْعَاً مِنَ الموتِ فقط، وإنَّما أضافَ إلى ذلكَ إحساسَ الأمومةِ الذي يَطغى على الرَّغْبَةِ فِي الحَيَاةِ، وأنَّ هذه القِطَاةَ المَخْلُوقَةُ مِنَ الحَنِينِ والألْفَةِ

(١) هذا الذي لا يَشكُّ فيه شيخُنَا هو دليلُ صدقٍ على فراسته؛ إذ يبدو أن نُسْخَةَ «الكامل» التي كانت بين يَدَيْهِ لم يكن فيها إلا البيتانِ الأوَّلانِ؛ فَهَذَا تَغْلُغُهُ فِي فِكْرِ أَبِي الْعَبَّاسِ إِلَى أَنَّهُ - لَا رَيْبَ - قرأ ما بعدهما، وقد جاءت الطبعتُ التَّالِيَةُ لـ«الكامل» مُثَبَّتًا فِيهَا الأبياتُ المذكورة.

تُحِبُّ أَنْ تَعِيشَ لَفَرْخَيْهَا وَقَدْ ذَكَرْتَ عَشَّهُمَا الَّذِي فِي مَضِيعَةٍ<sup>(١)</sup> تُصَفِّقُهُ الرِّيحُ، وَذَكَرَ لَهْفَةَ فَرْخَيْهَا لِعَوْدَتِهَا، وَأَنْهَمَا كُلَّمَا سَمِعَا هُبُوبَ الرِّيحِ مَدَّا عُنُقَيْهِمَا، لَعَلَّ هَذِهِ الرِّيحَ تَكُونُ قَدْ حَمَلَتْ إِلَيْهِمَا أُمَّهُمَا وَمَعَهَا الطَّعَامُ وَالْمَاءُ وَالذَّفءُ.. إِلَى آخِرِهِ. وَكُلُّ هَذَا الَّذِي ذَكَرَ مِنْ قِصَّةِ الْفَرْخَيْنِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْقَطَاةَ كَانَتْ تُجَادِبُ الشَّرْكَ بِكُلِّ مَا لَدَيْهَا مِنْ قُوَّةٍ، مَدْفُوعَةً بِحُبِّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةِ الْمَوْتِ، وَبَأَنْبُلِ مَشَاعِرِ الْأُمُومَةِ حَوْلَ فَرْخَيْنِ فِي مَضِيعَةٍ. وَهَذَا التَّجَادُبُ الَّذِي حَشَدَ لَهُ الشَّاعِرُ كُلَّ هَذِهِ الْمَشَاعِرِ يُقَابِلُ فِي حَالِ مَجْنُونِ بَنِي عَامِرٍ مُحَاوَلَةَ التَّمَاثُلِ وَالتَّجَلُّدِ فِي مُوَاجَهَةِ خَبَرِ طَائِرٍ لَا يُعْرِفُ قَائِلُهُ وَلَا يُعْرِفُ زَمَانُهُ، وَأَنَّ هَذَا الْفِرَاقَ وَهَذَا التَّبَاعُدَ هُوَ الشَّرْكَ الَّذِي لَمْ يُفْلِتْ قَلْبُهُ حَتَّى يُفْضِيَ بِهِ إِلَى الْعَدَمِ. وَهَذَا غَيْرُ كُلِّ الشَّوَاهِدِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَبُو الْعَبَّاسِ.

وَأَنَا الْآنَ أَحَاوِلُ أَنْ أُبَيِّنَ الْمِقْدَارَ الَّذِي حَاوَلَ الشُّعْرَاءُ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ وَلَمْ يَبْلُغُوهُ، وَأَقْطَعُ بِأَنَّ هَذَا الْمِقْدَارَ عِنْدَ أَبِي الْعَبَّاسِ أَبْعَدُ مَرْمَى مِمَّا أَقُولُهُ، وَحَسَبُ الْمَرْءِ أَنْ يَقُولَ مَا عِنْدَهُ.

### عناية المبرد بتشبيه يدي الناقة

ذَكَرَ أَبُو الْعَبَّاسِ مِنْ هَذَا اللَّوْنِ مِنَ التَّشْبِيهِ، الَّذِي يَكُونُ الْمُشَبَّهُ بِهِ فِيهِ قِصَّةٌ وَحِكَايَةٌ، أَيْتَاً لِلشَّمَاخِ وَهُوَ يَصِفُ سُرْعَةَ النَّاقَةِ، وَيُشَبِّهُ ذِرَاعَيْهَا فِي حَالِ سُرْعَتِهَا بِذِرَاعِي امْرَأَةٍ كَرِيمَةٍ أَسِيءَ إِلَيْهَا، فَأَخَذَتْ تَتَبَرَّأُ مِنْ هَذِهِ الْإِسَاءَاتِ، وَتُدِلُّ بِمَنْصِبِهَا وَشَرَفِ حَسَبِهَا، وَأَنَّ حَسَبَهَا وَأَدَبَهَا وَخُلُقَهَا كُلُّ ذَلِكَ يَنْفِي عَنْهَا مَا رُمِيَتْ بِهِ.

(١) «الْمَضِيعَةُ: بِكَسْرِ الضَّادِ، مَفْعَلَةٌ مِنَ الضَّيَاعِ؛ الْإِطْرَاحِ وَالْهَوَانِ»، لِسَانُ الْعَرَبِ (ض ي ع).



والحقيقة أن هذه الأبيات التي ذكرها أبو العباس هي التي لفتتني إلى هذا اللون من التشبيه؛ لأني أعلم، ويعلم الشماخ، ويعلم أبو العباس أن طرائق الإبانة عن سرعة الناقة كثيرة جداً، ومهما بالغت هذه المرأة في حركة ذراعَيْها وانعكس ذلك على ذراعِي الناقة - فإنه لا يُقدّم لنا السرعة التي نراها في مثل قولهم: [من الطويل]

مَرُوحٌ بِرِجْلَيْهَا إِذَا هِيَ هَجَرَتْ      وَيَمْنَعُهَا مِنْ أَنْ تَطِيرَ زَمَامُهَا<sup>(١)</sup>

ومثل قول امرئ القيس: [من الطويل]

كَأَنَّ الْحَصَى مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا      إِذَا نَجَلَتْهُ رِجْلُهَا خَذَفُ أَعْسَرَا<sup>(٢)</sup>

فلماذا ذكر ذراعِي هذه المرأة التي وراءها هذه القصة؟ هل أراد الشاعرُ بذكرها معنى غير هذا المعنى القريب؟ وهذا ليس بعيداً في الشعر؛ فقد ذكروا أن الشاعرَ يذكُر الشيء وهو يريد غيره، ولما قال امرؤ القيس: [من الطويل]

أَلَا عِمَ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي<sup>(٣)</sup>

(١) لم يُعرف قائله، وهو في: الكامل ٨١ / ٣، والموازنة ٢٨٦ / ٢، والأنوار ومحاسن الأشعار ص ١٧٦. و«مَرُوحٌ»: من «المرح» وهو شدة الفرح والنشاط، الصّحاح (م رح)، و«هَجَرَتْ»: سَارَتْ في الهَاجِرَةِ، والهَاجِرَةُ: نِصْفُ النَّهَارِ عند اشتداد الحرِّ، الصّحاح (ه ج ر).

(٢) في ديوانه، ص ٦٤. و«النَّجْلُ»: رَمِيكَ بالشيء، والناقةُ تَنْجُلُ الحَصَى بمناسِمِها، أي: ترمي به، العين (ن ج ل)، و«الخذفُ»: أَنْ يَأْخُذَ الرَّجُلُ الحَصَاةَ وَغَيْرَهَا بَيْنَ سَبَابَتَيْهِ ثُمَّ يَعْتَمِدُ بِالْيُمْنَى عَلَى الْيُسْرَى فَيَخْذِفُ بهما، جمهرة اللغة (خ ذ).

(٣) في ديوانه، ص ٢٧. وعَجْرُهُ:

قالوا: «ذَكَرَ الطَّلَلُ وَهُوَ يُرِيدُ نَفْسَهُ»<sup>(١)</sup>.

وَنَدَعُ هَذَا الْآنَ وَنَقْرَأُ الْأَبْيَاتِ؛ قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: قَالَ الشَّمَاخُ: [من الطويل]

كَأَنَّ ذِرَاعَيْهَا ذِرَاعَا مُدْلَةٍ      بُعِيدَ السَّبَابِ حَاوَلْتُ أَنْ تَعْذِرَا  
مِنَ الْبَيْضِ أَعْطَافًا إِذَا اتَّصَلَتْ دَعَتْ      فِرَاسَ بْنَ غَنَمٍ أَوْ لَقِيطَ بْنَ يَغْمَرَ  
بِهَا شَرَقٌ مِنْ زَعْفَرَانٍ وَعَنْبِرٍ      أَطَارَتْ مِنَ الْحُسْنِ الرَّدَاءُ الْمُحَبَّرَا  
تَقُولُ وَقَدْ بَلَ الدُّمُوعُ خِمَارَهَا      أَبِي عَفْتِي وَمَنْصِبِي أَنْ أُعَيَّرَا  
كَأَنَّ بِذِفْرَاهَا مَنَادِيلَ فَارَقَتْ<sup>(٢)</sup>      أَكْفَ رِجَالٍ يَعْصِرُونَ الصَّنَوْبَرَا  
كَأَنَّ ابْنَ آوَى مُوثِقٌ تَحْتَ عَرْضِهَا      إِذَا هُوَ لَمْ يَكْلَمْ بِنَابِيهِ ظَفَّرَا<sup>(٣)</sup>

قال أبو العباس: «شَبَّهَ يَدَيْهَا بِيَدَيِ مُدْلَةٍ بِجَمَالٍ وَمَنْصِبٍ قَدْ سَابَتْ وَأَقْبَلَتْ تَعْتَذِرُ وَتُشِيرُ بِيَدَيْهَا، فَوَصَفَ جَمَالَهَا الَّذِي بِهِ تُدَلُّ، وَمَنْصِبَهَا الْمُتَّصِلَ بِمَنْ ذَكَرْتَهُ.

وقوله: (أَطَارَتْ مِنَ الْحُسْنِ الرَّدَاءُ الْمُحَبَّرَا)، يقول: هي مُدْلَةٌ بِجَمَالِهَا فَلَا تَخْتَمِرُ فَتَسْتُرُ شَيْئًا عَنِ النَّظَرِ؛ لِأَنَّهَا تَبْتَهِجُ بِكُلِّ مَا فِي وَجْهَهَا وَرَأْسِهَا.

(١) قال ذلك الْأَعْلَمُ الشُّتَمِيرِيُّ، وَتَمَامُ كَلَامِهِ فِي شَرْحِ الْبَيْتِ هُوَ: «دَعَا لِلطَّلَلِ بِالنَّعِيمِ، وَأَنْ يَكُونَ سَالِمًا مِنَ الْآفَاتِ، وَهَذَا مِنْ عَادَاتِهِمْ، وَكَأَنَّهُمْ يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَهْلَ الطَّلَلِ، وَقَوْلُهُ: (وَأَهْلُ يَعْمَنَ)، يَقُولُ: قَدْ تَفَرَّقَ أَهْلُكَ وَذَهَبُوا فَتَغَيَّرَتْ بَعْدَهُمْ عَمَّا كُنْتَ عَلَيْهِ فَكَيْفَ تَنْعَمُ بَعْدَهُمْ، وَكَأَنَّهُ يَغْنِي بِذَلِكَ نَفْسَهُ؛ فَضَرَبَ الْمَثَلَ بِوَصْفِ الطَّلَلِ»، شرح ديوان امرئ القيس للأعْلَمِ الشُّتَمِيرِيِّ، ص ٩٨.

(٢) فِي دِيْوَانِ الشَّمَاخِ: «فَارَقَتْ»، وَقَدْ اعْتَمَدَهَا شَيْخُنَا فِي الشَّرْحِ.

(٣) فِي دِيْوَانِهِ، ص ١٣٤ - ١٣٧، بِاخْتِلَافٍ فِي التَّرْتِيبِ وَإِغْفَالٍ لِثَلَاثَةِ أَبْيَاتٍ يَشِيرُ إِلَيْهَا شَيْخُنَا بَعْدُ.

وقد كَشَفَ هذا المعنى عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ الْمَخْزُومِيُّ حيثُ يقول: [من الطويل]  
فَلَمَّا تَوَاقَفْنَا وَسَلَّمْتُ أَشْرَقَتْ      وَجُوهَ زَهَاهَا الْحُسْنُ أَنْ تَتَقَنَّعَا  
تَبَالَهْنَ بِالْعِرْفَانِ لَمَّا رَأَيْتَنِي      وَقُلْنَ امْرُؤُ بَاغٍ أَكَلَّ فَأَوْضَعَا  
وَقَرَّبْنَ أَسْبَابَ الْهَوَى لِمُتِمِّ      يَقِيسُ ذِرَاعًا كُلَّمَا قَسَنَ إِضْبَعَا<sup>(١)</sup>

وقولُ أبي العباس: «وقد كَشَفَ هذا المعنى عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ» كلمةٌ جيِّدة؛ لأنها تُعْني أن خَوَاطِرَ الشَّعْرِ لها تاريخٌ ميلاد، ثُمَّ قِصَّةُ حَيَاةٍ تَقْلُبُتُ فيها بين الشُّعراءِ وتَدَاوَلُوها، وأنَّ الذي يقول: «كَشَفَهَا فُلَانٌ» لا يقولها إِلَّا إذا كان الشَّعرُ كُلُّه تحت لسانه.

وكلمةُ «زَهَاها الحُسْنُ» غيرُ كلمةِ «أَطَارَتْ مِنَ الحُسْنِ الرِّدَاءُ» وإن اتَّفَقَ أصلُ المعنى، والتي أَطَارَتْ الرِّدَاءُ مُسْتَثَارَةٌ بعدما أَصَابَهَا لِسَانُ جَارٍ عليها وَأَهْجَرَ<sup>(٢)</sup>، كما بَيَّنَّتِ الأبياتُ التي أَسْقَطَهَا أبو العباسِ كما سَنُبِّين. وهذا غيرُ حالةِ الوجوه التي زَهَاها الحُسْنُ، وتُوْشِكُ كلمةُ «زَهَاها الحُسْنُ» أَنْ تكونَ مِنْ تحتِ كلمةِ «أَشْرَقَتْ وَجُوهٌ»، وَرَاجِعُ «المُفَاعَلَةُ» في قوله: «تَوَاقَفْنَا»، وَأَنَّ كَلًّا وَقَفَ مِنْ أَجْلِ الآخرِ، ثُمَّ سَلَّمْتُ، ثُمَّ أَشْرَقَتْ وَجُوهٌ، ثُمَّ تَبَالَهْنَ بِالْعِرْفَانِ، ثُمَّ قَدَّمْنَ أَسْبَابَ الْهَوَى، وكلُّ هذا مُتَبَجِّحٌ لَا محالةُ «زَهَاها الحُسْنُ»، بخلافِ تلكِ الغاضِبَةِ الكريمةِ المُسْتَثَارَةِ؛ فلا يمكنُ مطلقًا أَنْ تقولَ فيها: «زَهَاها الحُسْنُ»، ولا يمكنُ أَنْ تقولَ في صَواحِبَاتِ عُمَرَ: «أَطَرْنَ مِنَ الحُسْنِ الرِّدَاءُ الْمُحْبَرًا».

(١) الكامل ٣ / ٧٧ - ٧٨.

(٢) «أَهْجَرَ» مِنَ «الْهَجْرِ»، وهو الإِفْحَاشُ في الْمَنْطِقِ، العين (هـ ج ر).

وقد أغفل أبو العباس ثلاثة أبياتٍ ذُكرت في الديوان بعد قول الشَّمَاح: «كَأَنَّ ذِرَاعَيْهَا ذِرَاعَا مُدْلَةٍ»، وهي مِنْ تَمَامِ المعنى، وقد بُيِّنَتِ الأبياتُ بعدها عليها، وهي: [من الطويل]

كَأَنَّ ذِرَاعَيْهَا ذِرَاعَا مُدْلَةٍ	بُعَيْدَ السَّبَابِ حَاوَلْتُ أَنْ تَعْدِرَا
مُمَجَّدَةِ الْأَعْرَاقِ قَالَ ابْنُ ضَرَّةٍ	عَلَيْهَا كَلَامًا جَارٍ فِيهِ وَأَهْجَرَا
تَقُولُ لَهَا جَارَاتُهَا إِذْ أَتَيْنَهَا	يَحِقُّ لِلْيَلَى أَنْ تُعَانَ وَتُنْصَرَا
يَغْرُنُ لِمَبْهَاجِ أَزَالَتْ حَلِيلَهَا	عَمَامَةٌ صَيْفٍ مَاؤُهَا غَيْرُ أَكْدَرَا
مِنَ الْبَيْضِ أَعْطَافًا إِذَا اتَّصَلَتْ دَعَتْ	فِرَاسَ بَنِ غَنَمٍ أَوْ لَقِيطَ بَنِ يَعْمَرَا <sup>(١)</sup>

إلى آخر الأبيات التي رواها أبو العباس.

وفي الديوان شيءٌ آخرٌ غيرُ حذفِ الأبيات الثلاثة، وهو أن قوله: «كَأَنَّ ذِرَاعَيْهَا ذِرَاعَا مُدْلَةٍ» - متأخرٌ في رواية الديوان عن قوله: «كَأَنَّ ابْنَ آوَى»، وهو أشبه؛ لأن قوله: «كَأَنَّ ابْنَ آوَى» مِنْ أوصافِ الشَّرْعَةِ؛ فإلحاقه بِذِكْرِ «ذِرَاعَيْهَا» أقرب، إِلَّا أَنْ يُقَالَ شيءٌ آخرٌ سَاعَرِضٌ لَهُ.

والأبيات التي أغفلها أبو العباس شرحٌ للسَّبَابِ، وبيانٌ أنه من ابنِ ضَرَّةٍ لها، وَأَنَّ جَارَاتِهَا لَمَّا سَمِعْنَ ذَلِكَ أَتَيْنَهَا ورَأَيْنَ أَنَّ مِنْ حَقِّهَا أَنْ تُنْصَرَ، وَأَنَّهُنَّ يَغْرُنُ لَهَا، وهذا كُلُّهُ هو السِّيَاقُ الَّذِي تَكَلَّمْتُ فِيهِ وَحَرَكْتُ ذِرَاعَيْهَا، وهذا هو عَمُودُ التَّشْبِيهِ وَعَمُودُ هَذِهِ الصُّورَةِ.

والَّذِي أَفْهَمُهُ مِنْ قَوْلِهِ: «أَزَالَتْ حَلِيلَهَا عَمَامَةٌ صَيْفٍ مَاؤُهَا غَيْرُ أَكْدَرَا» هو أَنَّهَا بَاعَدَتْ صَاحِبَهَا إِبْعَادًا كَرِيمًا فِي زَمَنِ قَصِيرٍ؛ لِأَنَّ سَحَابَةَ

الصَّيْفِ أَخْفُ السَّحَابِ وَأَسْرَعُهُ، وَأَنْ ذَلِكَ لَمْ يُكَدِّرْ عِلَاقَتَهَا بِهِ، وَهَذَا هُوَ الْمَلَائِمُ لِقَوْلِهِ: «مُمَجَّدَةُ الْأَعْرَاقِ»، وَهَذِهِ شِيمَتُهُمْ. وَ«بِهَا شَرَقُ مِنْ زَعْفَرَانٍ» هُوَ مَا يَبْقَى عَالِقًا مِنَ الطَّيِّبِ. وَ«ابْنُ آوَى»: الْقِطُّ الْمُوثِقُ تَحْتَ حِزَامِ الرَّحْلِ، وَهَذَا تَصْوِيرٌ وَتَخْيِيلٌ. وَمَعْنَى «إِذَا هُوَ لَمْ يَكْلِمْ بَنَائِيهِ» يَعْنِي أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَجْرَحْهَا بَنَائِيهِ أَصَابَهَا بِأَظَافِرِهِ. وَ«ذِفْرَا النَّاقَةِ»: أَعْلَى قَفَاهَا خَلْفَ الْأُذُنِ، وَعَرَقُهُمَا وَسَوَادُهُمَا مِنْ دَلَائِلِ نَجَابَةِ النَّاقَةِ. وَ«قَارَفْتُ أَكُفَّ رِجَالٍ»: لَازِمَتْ. وَالصَّنَوْبَرُ عَصِيرُهُ أَسْوَدُ.

وَذَكَرَ أَبُو الْعَبَّاسِ شَاهِدًا آخَرَ لِهَذَا، هُوَ قَوْلُ الشَّاعِرِ: [مِن الطَّوِيلِ]

كَأَنَّ ذِرَاعَيْهَا ذِرَاعَا بَذِيَّةٍ      مُفَجَّعَةٍ لَاقَتْ خَلَائِلَ عَنْ عَفْرِ  
سَمِعْنَ لَهَا وَاسْتَفْرَعَتْ فِي حَدِيثِهَا      فَلَا شَيْءَ يَفْرِي بِالْيَدَيْنِ كَمَا تَفْرِي<sup>(١)</sup>

وَعَقَّبَ أَبُو الْعَبَّاسِ عَلَى هَذَا بِقَوْلِهِ: «وَلَوْ قِيلَ إِنَّ هَذَا مِنْ أَبْلَغِ مَا قِيلَ فِي هَذَا الْوَصْفِ مَا كَانَ ذَلِكَ بَعِيدًا؛ وَصَفَهَا بِأَنَّهَا بَذِيَّةٌ وَقَدْ فُجِّعَتْ مِمَّا أُسْمِعَتْ وَنِيلَ مِنْهَا، وَلَقِيتْ خَلَائِلَهَا بَعْدَ زَمَانٍ وَتِلْكَ الشَّكْوَى كَامِنَةٌ فِيهَا، وَأَصْغَيْنَ إِلَيْهَا فَتَسَمَّعْنَ»<sup>(٢)</sup> انْتَهَى كَلَامُ أَبِي الْعَبَّاسِ.

وَالشَّاعِرُ هُنَا لَمْ يَسْتَرْسِلْ كَمَا اسْتَرْسَلَ الشَّمَاخُ الَّذِي شُغِلَ بِعِرَاقَةِ الْمَرَأَةِ، وَأَنَّهَا مِنْهَاجٌ وَمِنَ الْبَيْضِ أَعْطَافًا.. إِلَى آخِرِهِ. الشَّاعِرُ هُنَا اهْتَمَّ بِالْكَلِمَاتِ الَّتِي تُثِيرُ هَذِهِ الْبَذِيَّةَ وَتُفَجِّعُهَا، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَلَائِلُهَا هُنَا أَيْضًا مِنْ

(١) أوردَ هُمَا أَبُو الْعَبَّاسِ بِلَا نِسْبَةٍ، الْكَامِلُ ٣ / ٧٩، وَهُمَا كَذَلِكَ فِي دِيْوَانِ الْمَعَانِي ٢ / ١٠١٠،

وَحِمَاسَةِ الْخَالِدِيِّينَ ١ / ١٩٠.

(٢) الْكَامِلُ ٣ / ٧٩.

عَرِقْهَا، وَأَنْهَنَ سَمْعَنَ لَهَا وَكُنَّ يَزِدْنَهَا إِثَارَةً، فَلَمْ يَفِرْ أَحَدٌ بِالْيَدَيْنِ كَمَا تَفْرِي. و«الْفَرِي»: الشَّقُّ. وهذه جُمْلَةٌ جَيِّدَةٌ جَدًّا، وجاءت في خِتام الحديث عن هذه المرأة، وهي نَصٌّ في الموضوع، ولذلك قال أبو العباس: «لَوْ قِيلَ إِنَّ هَذَا مِنْ أَبْلَغِ مَا قِيلَ فِي هَذَا الْوَصْفِ مَا كَانَ ذَلِكَ بَعِيدًا».

وَمِنْ حَقَّنَا أَنْ نَطْرَحَ مَا يَعْنُنَا لَنَا مِنْ أَسْئَلَةٍ عَلَى أَبِي الْعَبَّاسِ؛ لِأَنَّهُ أَحَدُ شُيُوخِ هَذِهِ اللُّغَةِ الْكِبَارِ، وَكَانَ أَهْلُ زَمَانِهِ - وَفِيهِمُ الْمُزْنِيُّ وَالْجَرْمِيُّ وَابْنُ السَّرَّاجِ وَالْجَا حِظُّ - يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي مَشْكَلاتِهِمْ، وَقَدْ كَتَبَ «الْكَامِلُ» فِي آخِرِ أَيَّامِهِ، وَذَكَرَ الشَّيْخُ / عُضَيْمَةُ أَنَّهُ كَتَبَ «الْمُقْتَضَبَ» بَعْدَ مَا اكْتَمَلَ عِلْمُهُ وَاكْتَمَلَتْ ثِقَاتُهُ<sup>(١)</sup>، ثُمَّ إِنَّهُ كَتَبَ «الْكَامِلَ» بَعْدَ «الْمُقْتَضَبِ» وَأَحَالَ عَلَى «الْمُقْتَضَبِ» فِي بَعْضِ مَسَائِلِ «الْكَامِلِ».

هَلْ مِنْ حَقَّنَا أَنْ نَسْأَلَ أَبَا الْعَبَّاسِ لِمَاذَا اخْتَارَ تَشْبِيهَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ أَشَدَّ الْاِخْتِلَافِ لِمُشَبِّهِ وَاحِدٍ: ذِرَاعٍ مُدَلَّةٍ مِنْ شَأْنِهَا كَذَا وَكَذَا، وَذِرَاعٍ بَذِيَّةٍ مِنْ شَأْنِهَا كَذَا وَكَذَا؟ هَلْ أَرَادَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَنْ يَقُولَ لَنَا: إِنَّ الْمُشَبَّهَ وَحْدَهُ لَيْسَ هُوَ الَّذِي يَسْتَدْعِي الْمُشَبَّهَ بِهِ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ مَعَهُ فِي اخْتِيَارِ الْمُشَبَّهِ بِهِ سِيَاقُ الْقَصِيدَةِ، وَلَوْ كَانَ الْمُشَبَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الْمُعَوَّلُ عَلَيْهِ لَصَحَّ أَنْ نَضَعَ «ذِرَاعٍ بَذِيَّةٍ» مَكَانَ «ذِرَاعٍ مُدَلَّةٍ» أَوْ الْعَكْسُ، وَلَوْ صَحَّ هَذَا لَصَحَّ أَنْ نَضَعَ تَشْبِيهَ أَعْمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (إِبْرَاهِيمَ)، مَوْضِعَ تَشْبِيهِ أَعْمَالِهِمْ بِسَرَابٍ بَقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً، الَّذِي

(١) قَالَ الشَّيْخُ / عُضَيْمَةُ: «الْمُقْتَضَبُ»: أَلَفَ شَيْخُ الْعَرَبِيَّةِ فِي وَقْتِهِ فِي زَمَنِ شَيْخُوخَتِهِ بَعْدَ أَنْ اكْتَمَلَ نُضْجُهُ الْعَقْلِيُّ، وَعَمَّقَ تَفْكِيرُهُ، وَاسْتَوَتْ ثِقَاتُهُ، مَقْدُمَةً «الْمُقْتَضَبِ» ١ / ٧٠.

جاء في سورة (النور)؟ وكلُّ ذلك غيرُ صحيح؛ فما الذي أغرى الشَّمَخَ يَدَيِ المِدْلَةِ التي إذا انتَسَبَتْ دَعَتْ فِرَاسَ بنَ عمرو، وهو سَيِّدٌ في تَغْلِب، أو لَقِيطَ بنَ يَعمَرَ، وهو أيضًا سَيِّدٌ في تَغْلِب، وكلاهما صارَ جِذْرَ أَرْوَمَةٍ؟

أقول: يَسْتَوِي أن يكون أبو العَبَّاس أراد أن يَلْفِتَ إلى هذا أو لم يُرد؛ لأنَّ كلامَ العالمِ إذا أثار في نفوسنا خاطرًا صارَ مِن حَقِّهِ علينا أن نَعُدَّ هذا الخاطِرَ مِن عطائه ولو لم يُرِدْهُ؛ لأنَّه لولا كلامُه ما ثار في نفوسنا هذا الخاطر، وَمِنَ الخَيْرِ أن نَتَخَفَّفَ في مسألةِ أرادَ المُصَنِّفُ أو لم يُرد، وَحَسْبُ فِكْرَتِهِ أنها أثارتُ عندك فِكْرَةً.

ولم أَجِدْ أَصْعَبَ من بيانِ مناسبةِ التَّشْبِيهِ لِسِياقِ القصيدةِ أو سياقِ السُّورةِ، ومع طُولِ محاولاتي في هذا فإني لم أَصِبْ منه إلا القليل، والإصابةُ غالبًا ما تكون على وَجْهِ المُقَارَبَةِ، وليس على وَجْهِ القَطْعِ، وهذا مِن أَفْضَلِ المسكوتِ عنه؛ لصعوبةِ الخَوْضِ فيه، ولو اقتَحَمَهُ أَهْلُ العِلْمِ الصُّرَحَاءُ وابتعدَ غيرُهُم لَانْقَادَ هذا البابِ العَصِيِّ؛ لأنَّ خطأ أَهْلِ العِلْمِ الصَّادِقِينَ في البَحْثِ عن الصَّوابِ ربما أثارَ مَنْ هو أَشْبَهُ بِهِمْ؛ فَدَرَسَ وَرَاجَعَ وَأَصَابَ.

وقد راجعتُ قصيدةَ الشَّمَخِ، ورأيتُ أنه لا يجوز أن يقول: «كَأَنَّ ذِرَاعَيْهَا ذِرَاعَا بَذِيَّةٍ»، وبيانُ ذلك بإيجازٍ شديدٍ أنَّ هذه القصيدةَ قالها الشَّمَخُ بعدما عَلَتْ به السَّنُّ: [من الطويل]

فَقَوْلُ ابْنَتِي أَصْبَحْتَ شَيْخًا وَمَنْ أَكُنْ لَهُ لِدَةً يُصْبِحُ مِنَ الشَّيْبِ أَوْجَرًا<sup>(١)</sup>

(١) في ديوانه، ص ١٣٠، وهو البيتُ السَّادِسُ في قصيدته التي منها الأبياتُ محلُّ النَّظَرِ.

و«اللدة»: هو المولودُ في سنّه. ومعنى «يُصبح أوجراً» أي: أوجَل وأخوفَ وكأنّه يترقّب الموت.

وفي القصيدة أنّه غلبه الدّينُ فارتحلَ رحلةً طويلةً إلى معشرٍ لا يرضى بغيرهم معشراً من النّاس، والرحلةُ إلى الكرامِ من أعظمِ الثّناء عليهم، ومن أعظمِ ثناءِ الشّاعرِ على نفسه؛ لأنّه لا يرحلُ إلى الكرامِ إلا كريماً، ولا يقبلُ أن يحطّ عنه ثقلُ دينه إلا كريماً، وقد وصف المشقّة التي قطعها ناقته في هذه الرحلة، وأنها إذا قطعتُ قُفاً كُميتاً بدا لها سَماوةٌ قُفٌّ، و«القُفُّ»: ما غلظَ من الأرضِ وعلاً ولم يبلغْ أن يكونَ جبلاً، و«الكُميتُ»: لَوْنٌ بين السّوادِ والحُمْرة، و«سَماوةُ القُفِّ»: أعلاه؛ يعني: ما إن تقطعَ أرضاً شاقّةً إلا بدا لها ما هو أشقُّ منها. وقد مدَحَ النّاقةَ وذكرَ عِراقَةَ عِرْقَها بقوله: «كَأَنَّ بِذِفْراها مَنادِيلَ قَارَفَت أَكْفَ رِجالٍ»، وسَبَقَ ذِكرُهُ، ومدَحَها أيضاً بقوله: [من الطويل]

فَقَرَّبْتُ مُبراةً تَخالُ ضُلوعَها مِن الماسِخِيّاتِ القِسيِّ المؤتِرا<sup>(١)</sup>

وهذا مِن أفضلِ ما تُمدَحُ به النّوقُ، وقد ذكر أبو العبّاس هذا البيتَ واستحسنه. و«المُبراةُ»، بضمّ الميم: التي في أنفِها البرّةُ التي تُقاد بها، وختم القصيدة بثناءٍ على النّاقةِ وأنّ كلّ بَعيرٍ فداءٌ لها، وذلك قوله: [من الطويل]

فَكُلُّ بَعيرٍ أَحسنَ النَّاسِ نَعْتَهُ وَآخِرَ لَم يُنَعْتَ فِداءُ لِيضْمَرَ<sup>(٢)</sup>

و«ضَمَرَ»: اسمُ النّاقةِ. وهذا البيتُ وحده يكفي في القول بأنّه ما كان لِنّاقةٍ يُفدّيها بكلِّ بَعيرٍ أحسنَ النَّاسِ وَصفه، وكلِّ بَعيرٍ لم يُنَعْتَ أن يَصِفَ

(١) في ديوانه، ص ١٣٣.

(٢) في ديوانه، ص ١٤٥.



ذراعَيْهَا بِذِرَاعَيْ بَذِيئَةٍ، هذا فضلاً عن التَّقَارُبِ فِي الْعِرَاقَةِ بَيْنِ النَّاقَةِ وَبَيْنِ الْمُدَلَّةِ الْمُمَجَّدَةِ الْأَعْرَاقِ.

ذَكَرْتُ أَنَّ أَبَا الْعَبَّاسِ قَدَّمَ قَوْلَهُ: «كَأَنَّ بِذِفْرَاهَا» عَلَى قَوْلِهِ: «كَأَنَّ ابْنَ آوَى»، وَلَوْ قُلْتُ إِنَّ هَذَا التَّقْدِيمَ يَعْنِي ضَمًّا وَصَفِ النَّاقَةِ بِالْعِرَاقَةِ إِلَى أَوْصَافِ الْمُدَلَّةِ الْمُمَجَّدَةِ الْأَعْرَاقِ لَمْ يَكُنْ هَذَا بَعِيدًا عَنْ وَعْيِ أَبِي الْعَبَّاسِ بِخَفَايَا الشُّعْرِ، وَأَبُو الْعَبَّاسِ قَرَأَ الْقَصِيدَةَ كُلَّهَا وَذَكَرَ مِنْهَا أُبْيَاتًا، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ اسْتِحَالَةُ أَنْ يَقُولَ الشَّمَاخُ: «كَأَنَّ ذِرَاعَيْهَا ذِرَاعَا بَذِيئَةٍ» بَعْدَ مَا رَافَقْتَهُ فِي الرِّحْلَةِ وَهُوَ وَحْدَهُ وَلَيْسَ لَهُ رَفِيقٌ سِوَاهَا، وَقَدْ وَدَّعَ «أُمَّ بَيْضَاءَ» أَكْرَمَ تَوْدِيعٍ بِقَوْلِهِ: [مِنَ الطَّوِيلِ]

عَلَى أُمِّ بَيْضَاءَ السَّلَامُ مُضَاعَفًا عَدِيدَ الْحَصَى مَا بَيْنَ حِمَصٍ وَشَيْرَازٍ<sup>(١)</sup>

وَحِينَ يَسْتَقِيمُ لَنَا بَيَانُ الْعِلَاقَةِ بَيْنِ الصُّورَةِ الْبَيَّانَةِ، وَخُصُوصًا الصُّورَةِ الْمُمْتَدَّةِ، وَبَيْنِ الْقَصِيدَةِ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي حَاوَلْتُهُ وَالَّذِي يَتَّسِعُ لِأَكْثَرِ مِمَّا قُلْنَاهُ نَعُودُ إِلَى بَيَانِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَرَّابٍ يَقِيعُهُ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً﴾ [النور: ٣٩] وَقَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿كَرَّمَادٍ أَشْتَدَّتْ بِهِ أَلْرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وَبَيَانِ أَنَّهُ لَا يَسُدُّ أَحَدُهُمَا مَسَدَّ الْآخَرِ بَيَانًا مُقْنَعًا.

وَالْعَجِيبُ أَنَّهُ مَعَ كَثْرَةِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ، وَكَثْرَةِ الدِّرَاسَاتِ الْقِرْآنِيَّةِ، وَكَثْرَةِ دِرَاسَاتِ تَشْبِيهَاتِ الْقُرْآنِ وَأَمْثَالِ الْقُرْآنِ، يَبْقَى هَذَا الْأَمْرُ الْجَلِيلُ مَسْكُوتًا

عنه، وسأحاول بيان ذلك بإيجاز كما حاولت بيان علاقة ذِرَاعِي المِدْلَةِ بقصيدة الشَّمَاخ؛ فَإِنْ أَصَبْتُ فذلك فضلٌ مِنَ الله لا طاقةَ لي بشُكْرِهِ، وإن كانت الأخرى فعُذْرِي أنني أحاولُ أن أتكلَّم في المسكوت عنه، ولعلَّ ما أقوله يَسْتَحِثُّ مَنْ هو أقدرُ مِنِّي على بيانه.

### سياق تشبيه أعمال الذين كفروا

والذي لاحظته أن تشبيه أعمال الذين كفروا في سورة «إبراهيم» برَمَادٍ اشتدَّت به الرِّيحُ في يومٍ عاصِفٍ جاء بعد الإخبار بهلاك أصحاب الأعمال، وأن الذين كفروا لما قالوا الرُّسلهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣]، ثم قال سبحانه: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ، وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٥ - ١٧]، ثم جاء مثل أعمالهم، وقال -جلَّ شأنه-: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وهذا معناه أن ذَكَرَ الأعمال جاء بعد هلاكهم ودخولهم النَّارَ وتجرعهم العذاب، وأنه يأتيهم الموت من كلِّ مكان، وهذا لا يُنَاسِبُهُ أن تُذَكَرَ مكانه صُورَةُ المَثَلِ التي في «النور»؛ لأنَّ صَاحِبَ العملِ هنا حَيٌّ يَرَكُضُ وراء السَّرَابِ وهو ظامئ، فلم يَجِدْ شَيْئًا وَوَجَدَ الله فَوْقَهُ الله حِسَابَهُ، وكيف يُقال: ﴿فَوْقَهُ حِسَابُهُ﴾ [النور: ٣٩] بعدما أخبر أنه

- سُبْحَانَهُ - أَهْلَكَه، وَأَنَّهُ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ إِلَى آخِرِ مَا فِي سُورَةِ «إِبْرَاهِيمَ»؟  
وَلَا حِظَّ مَا فِي سُورَةِ «إِبْرَاهِيمَ»: رَمَادٌ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ، وَلَمْ يَقُلْ: «اشْتَدَّتْ  
عَلَيْهِ»؛ لِأَنَّ الَّذِي فِي الْآيَةِ أَنَّ الرِّيحَ اقْتَلَعَتْهُ وَذَهَبَتْ بِهِ حَيْثُ تَذْهَبُ، ثُمَّ ذَكَرَ  
الْعَاصِفَ وَأَنَّهُ لَيْسَ وَصْفًا لِلرِّيحِ فِي الْآيَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ وَصْفٌ لِلْيَوْمِ، وَفَرَّقَ  
بَيْنَ قَوْلِنَا: «رِيحٌ عَاصِفَةٌ» وَقَوْلِنَا: «يَوْمٌ عَاصِفٌ»، كُلُّ هَذَا تَأْكِيدٌ لِهَلَاكِ هَذِهِ  
الْأَعْمَالِ بَعْدَ بَيَانِ هَلَاكِ أَصْحَابِهَا.

وَالسِّيَاقُ مُخْتَلِفٌ فِي سُورَةِ «النُّورِ»؛ لِأَنَّ الَّذِي قَبْلَ ذِكْرِ أَعْمَالِ الَّذِينَ  
كَفَرُوا ذِكْرُ الرِّجَالِ الَّذِينَ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، ثُمَّ خَتَمَتِ  
الْآيَةُ الْحَدِيثَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُكْرَمِينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا  
عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النُّور: ٣٨]، وَكَانَتْ هَذِهِ الزِّيَادَةُ الَّتِي هِيَ مِنْ  
فَضْلِهِ - سُبْحَانَهُ - دَاعِيَةً إِلَى ذِكْرِ أَعْمَالِ الَّذِينَ هُمْ عَلَى الضَّدِّ مِنْ ذَلِكَ،  
وَهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَقُوِلَتْ الزِّيَادَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ  
كَرَّابٍ يَقِيعُهُ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النُّور: ٣٩]،  
وَهَذَا ظَاهِرٌ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ -.

وَمُنَاسَبَةٌ أُخْرَى فِي سُورَةِ «النُّورِ»، وَهِيَ جَلِيلَةٌ جَدًّا، وَأَعْنِي بِهَا ذِكْرَ  
ظُلُمَاتِ الْبَحْرِ اللَّجِّيِّ الَّذِي مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ؛ فَانْتَقَلَتْ  
الْآيَةُ مِنَ الصَّحَرَاءِ الْقَاحِلَةِ الْمَتَوَقِّدَةِ، الَّتِي يَظْهَرُ فِيهَا السَّرَابُ، إِلَى  
الْمُقَابِلِ، وَهُوَ بَحْرٌ لُّجِّيٌّ.. إِلَى آخِرِهِ، وَهَذَا الْإِنْتِقَالُ مِنْ مُشَبَّهِ بِهِ إِلَى  
مُشَبَّهِ بِهِ آخِرُ وَالْمُشَبَّهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ - كَثِيرٌ فِي الشُّعْرِ الْجَاهِلِيِّ؛ تَرَى الشَّاعِرَ  
يُشَبِّهُ نَاقَتَهُ بِالْعَيْرِ الَّذِي هُوَ حِمَارُ الْوَحْشِ، وَيَذْكُرُ لَهُ قِصَّةً قَدْ تَطَوَّلَ، ثُمَّ

بعدما يُشبعُ هذه القصّة بالأحداث والأحوال يقول: «أو»، ثمّ يأتي بمُشبهٍ به آخر؛ كالشور، أو الظلّيم، أو البقرة المَسْبُوعَة التي أكل السَّبُع وَلَدَهَا، ويذكرُ لها قصّةً هي أيضًا زاحرةٌ بالأحداث والأحوال، وقد تنتهي القصيدة بهذا أو تذكرُ أبياتٌ قليلةٌ في المدح أو الهجاء أو ما شاء الشّاعر، وكأنّ الذي أراده الشّاعرُ هو في هذه القصص، وكأنّ أحوال المُشبه به التي استغرقت أكثر القصيدة هي التي أضمرَ فيها الشّاعرُ مُرادَه.

وقد جاء ذلك في الكتاب العزيز، ومنه قوله تعالى في الموضوع الذي نحن فيه: ﴿أَوْ كَظُلُمَتِ فِي بَحْرِ لُجِّي﴾ [النور: ٤٠]، وقوله سبحانه في سورة «البقرة» في: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٦]، فذكر سبحانه أولًا: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] إلى آخر الآية، ثم قال جلّ شأنه: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩]، والأصل أن تُتقنَ علمَ ذلك في الشّعَر الجاهلي، الذي هو اللّسانُ المُبين الذي نزلَ به القرآن، فإذا سَلِسَ لنا وانقادَ انتقلنا إلى القرآن، ولكنّ المشكلة أن المشغولين بالقرآن أداروا ظُهورَهم إلى الشّعَر الجاهلي، والمشغولين بالشّعَر أداروا ظُهورَهم إلى الدّراساتِ القرآنيّة، فأدار الزّمانُ ظهرَه لهؤلاء وهؤلاء.

ومن أسرار البيانِ الذي بُنيت عليه الطّباعُ أنّك ترى السّرّ فيه غامضًا وبعيدًا، فإذا هُديتَ فيه بهدى الله رأيته واضحًا جدًّا، حتّى إنّك لتعجبُ كيف كان غامضًا؟! وشاهد ذلك ما قلته في سورتي «إبراهيم» و«النور»،

وسأحاول بيان ما بعد كلمة «أو» في سورتي «البقرة» و«النور»، وأشهد أن هذا شغلني كثيراً ولم ينكشف لي شيء منه إلا بعد لأيٍ ولأواء، وبعد ما تكشف لي صرتُ أعجب من شدة ظهوره، وكيف كان غائباً عني وغائماً عليّ هذا الزمن؟! وإذا كانوا علّمونا أنه لا حرج في العلم فمن حقنا أن نُضيف إليه: «ولا حرج في الجهل»، والمهم أن نحاول إزاحة الجهل، ولعلّ الله - سبحانه - يتقبل منا ذلك، ويجعلنا مع الذي رآه ﷺ يتقلب في الجنة بسبب غُصْنِ شَوْكٍ أزاحه عن الطريق خشية أن يؤذي المسلمين<sup>(١)</sup>، ونرجو الله - سبحانه - أن يجعل ما نحن فيه إزالة غُصْنِ جهلٍ، وأغصان الجهل أكثر فتكاً بالمسلمين من أغصان الشوك.

### سياق تشبيه الذين اشتروا الضلالة بالهدى

وأقول - وبالله التوفيق - مُبتدئاً بتعاقب التشبيهِين في سورة «البقرة»، وأوّل ما ألاحظه في هذا هو دِقَّةُ بناء المعنى؛ فقد بدأ بالاسم الموصول، وهو نكرةٌ يُعرّف بالصلة، ولذلك اشترطوا أن تكون الصلة أمراً معلوماً مُتعارفاً حتى يصحّ تعريفها للنكرة<sup>(٢)</sup>، ومعنى هذا أن قصّة الصلة هنا،

(١) أخرج البخاريُّ بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجلٌ يمشي بطريق وجد غُصْن شَوْكٍ فأخذه فشكر الله له فغفر له»، صحيح البخاري، كتاب: المظالم، باب: من أخذ الغُصن وما يؤذي الناس في الطريق فرمى به، حديث رقم (٢٤٧٢).

وأورد أحمدُ بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «بينما رجلٌ يمشي على طريق وجد غُصْن شَوْكٍ، فقال: لأرفعن هذا لعلّ الله ﷻ يغفر لي به، فرفعه، فغفر الله له به، وأدخله الجنة»، مسند أحمد، حديث رقم (١٠٢٨٩).

(٢) يُنظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ١ / ١٦٤، وتعليق الشيخ محمد محيي الدين

وهي ﴿أَسْتَوْقَدُ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧]  
 قِصَّةٌ مُتَعَالِمَةٌ مشهورة، وكلمة ﴿أَسْتَوْقَدُ نَارًا﴾ فيها معنيان؛ الأول: أَنَّهُ  
 أَلَحَّ فِي طَلَبِ مَا يُبَيِّنُ لَهُ السَّبِيلَ؛ لِأَنَّ الْأَلْفَ وَالسِّينَ وَالتَّاءَ ثَلَاثُهَا تَدُلُّ  
 عَلَى الطَّلَبِ وَالْإِلْحَاحِ فِي الطَّلَبِ، مثل: استغفر، واستجار، واستعاذ.. إلى  
 آخره. والمعنى الثاني: التَّنْكِيرُ فِي كَلِمَةِ ﴿نَارًا﴾ يَعْنِي أَنَّهُ أَلَحَّ فِي طَلَبِ نَارِ  
 أَيِّ نَارٍ مَهْمَا قَلَّتْ، فَكَانَ أَنَّ أَتَاهُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - بِالضِّيَاءِ، وَالضِّيَاءُ كَمَا  
 يَقُولُ عُلَمَاؤُنَا: فَرَطُ الْإِنَارَةِ<sup>(١)</sup>؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً  
 وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، فَلَمَّا أَفَاضَ اللَّهُ عَلَيْهِ هَذَا الضِّيَاءَ رَاغَ مِنْهُ وَلَمْ  
 يَتَنَفَّعْ بِهِ، فَذَهَبَ اللَّهُ بِهِ. وَكَلِمَةُ ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ غَيْرُ قَوْلِنَا: «ذَهَبَ  
 نُورُهُمْ، وَأَذْهَبَ اللَّهُ نُورَهُمْ»؛ لِأَنَّ الَّذِي فِي الْآيَةِ أَنَّهُ - جَلَّ وَتَقَدَّسَ - هُوَ  
 الَّذِي ذَهَبَ بِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَعُودُ أَبَدًا، وَأَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ  
 الْغَضَبِ مَا فِيهِ.

هذه إشاراتٌ إلى شيءٍ ما في البناء اللُّغَوِي، ثُمَّ لَا حِظَّ أَنَّهُمْ كَانُوا  
 جَامِدِينَ لَيْسَتْ لَهُمْ أَحْدَاثٌ كَمَا فِي التَّشْبِيهِ الثَّانِي، وَأَنَّ أَصْحَابَ التَّشْبِيهِ  
 الثَّانِي يَضَعُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ حَذَرَ الْمَوْتِ، وَأَنَّ الْبَرْقَ يَكَادُ يَخْطَفُ  
 أَبْصَارَهُمْ.. إِلَى آخِرِهِ، وَلِذَلِكَ كَانَ جُمُودُهُمْ هَذَا مُقَدِّمَةً لَخْتِمِ التَّشْبِيهِ  
 بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، وَمَا كَانَ لِهَذِهِ  
 الْآيَةِ أَنْ يُخْتَمَ بِهَا التَّشْبِيهِ الثَّانِي؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمَعُونَ وَيُبْصِرُونَ، وَلِهَذَا  
 يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ هَذَيْنِ التَّشْبِيهِينِ لِفَرِيقَيْنِ، وَإِنَّ كَلِمَةَ ﴿مَثَلُهُمْ﴾ الَّتِي

(١) قَالَ بِذَلِكَ جُلُّ الْمُفَسِّرِينَ.

تَرْجِعُ إِلَى الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى تَعْنِي فَرِيقَيْنِ، وَأَنْ كَلِمَةً ﴿ صُمُّ بِكُمْ عُمَى ﴾ تَرْجِعُ بِهَذَا التَّشْبِيهِ إِلَى الَّذِينَ ﴿ حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً ﴾، وَأَنْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ يَرْجِعُ إِلَى قَوْلِهِ -جَلَّ شَأْنُهُ-: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٦]، وَلَا حِظَّ الشَّبهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وَ﴿ لَا يَرْجِعُونَ ﴾، وَكَأَنَّ السَّلَامَ النَّافِيَةَ الدَّالَّةَ عَلَى التَّأْيِيدِ، وَالِدَاخِلَةَ عَلَى الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ الْوَاقِعِ خَبَرًا عَنِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ الْمُتَقَدِّمِ عَلَى الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ، وَالْمَسْبُوقِ بِفَاءٍ تُرْتَّبُهُ عَلَى مَا قَبْلَهُ أَقُولُ: كُلُّ ذَلِكَ يُشِيرُ إِلَى الرِّبْطِ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَالْمَثَلِ الْأَوَّلِ، وَنَبْرًا إِلَى اللَّهِ أَنْ نَقُولَ فِي كَلَامِهِ كَلِمَةً لَا يَرْضَاهَا، وَلَوْ لَا الرَّغْبَةُ فِي فَتْحِ بَابِ التَّدْبِيرِ الَّذِي أَمَرْنَا بِهِ لِأَمْسِكَ جَلَالَ الْكِتَابِ أَلَسْتَنَا وَأَقْلَامَنَا.

وَأَوَّلُ مَا يُلَاخِظُ فِي التَّشْبِيهِ الثَّانِي أَنَّهُ قَالَ: ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ [البقرة: ١٩]، وَقَالَ عِلْمَاؤُنَا: «الْمُرَادُ: كَذَوِي صَيْبٍ»<sup>(١)</sup>، وَهَذَا وَاضِحٌ. وَالصَّيْبُ الَّذِي هُوَ الْمَطَرُ مِنْ أَكْرَمِ مَا يَسُوقُهُ رَبُّ النَّاسِ إِلَى النَّاسِ وَأَفْضَلِهِ، وَإِذَا رَجَعْنَا إِلَى مَا يَقُولُونَهُ فِي الْمَطَرِ الَّذِي يَأْتِيهِمْ بَعْدَ سِنِينَ تَتَابَعَتْ جَذْبًا لَوْ جَدْنَا أَنَّ الْقَوْمَ لَمْ تَسِرْهُمْ مَسَرَّةً كَصَوْتِ هَذَا الْمَطَرِ، ثُمَّ إِنَّ سَيِّدَنَا - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - شَبَّهَ مَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ بِالْغَيْثِ أَصَابَ أَرْضًا<sup>(٢)</sup>، ثُمَّ يَفَاجِئُنَا هَذَا الصَّيْبُ بِمَفَاجَأَةٍ أَخْرَجَتْهُ مِنْ (١) يُنْظَرُ: الدُّرُّ الْمَصُونُ ١ / ١٧٩، وَاللُّبَابُ فِي عِلْمِ الْكِتَابِ ١ / ٣٩٨، وَحَاشِيَةُ الشُّهَابِ عَلَى تَفْسِيرِ الْبَيْضَاوِيِّ ١ / ٤١٨.

(٢) أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا؛ فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ =

كُلُّ مَا يَسُرُّ وَأَدْخَلْتَهُ فِي كُلِّ مَا يَسُوءُ، بِحَرَكَةِ لُغَوِيَّةٍ خَاطِفَةٍ، وَرَبَّمَا لَا يَتَّبِعُهُ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾، وَأُرِيدُ بِالْحَرَكَةِ اللَّغَوِيَّةِ دُخُولَ حَرْفِ الظَّرْفِ الَّذِي هُوَ «فِي» عَلَى ضَمِيرِ الصَّيِّبِ، وَلَوْ حَذَفْتَ هَذَا الضَّمِيرَ لَكَانَ الْمَعْنَى أَنَّ الصَّيِّبَ الَّذِي هُوَ الْمَطَرُ كَانَ فِي ظُلُمَاتٍ وَرَعْدٍ وَبَرْقٍ، وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ، وَمَجِيءُ هَذَا الضَّمِيرِ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالرَّعْدَ وَالْبَرْقَ فِي الصَّيِّبِ الَّذِي هُوَ الْمَطَرُ، وَكَأَنَّ السَّمَاءَ لَا تُمَطِّرُ مَاءً فَحَسَبَ، وَإِنَّمَا تُمَطِّرُ مَاءً وَفِي هَذَا الْمَاءِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ، وَلِذَلِكَ يَكُونُ هَذَا الْمَشْهُدُ الْمَخُوفُ الْمُرْعِبُ خَرَجَ مِنْ رَحِمِ هَذِهِ الدَّلَالَةِ اللَّغَوِيَّةِ الْخَاطِفَةِ.

وَإِشَارَةٌ سَرِيعَةٌ أُخْرَى لِحَالِ الْفَرْعِ الَّذِي أَصَابَهُمْ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ﴾ بَدَلُ «أَنَامِلَهُمْ»، وَفِيهَا أَنَّ النَّاسَ قَدْ ذَهَبَ بِعَقُولِهِمْ مَا فَاجَأَهُمْ بِهِ الصَّيِّبُ فَكَانُوا يَحَاوِلُونَ وَضْعَ أَصَابِعِهِمْ بِتَمَامِهَا فِي آذَانِهِمْ. وَكَلِمَةٌ ﴿كَلَّمَآ أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ قَرِيبَةٌ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ فِي الْمَثَلِ الْأَوَّلِ: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، وَلَهَا دَلَالَةٌ مُخْتَلِفَةٌ؛ لِأَنَّ أَصْحَابَ الْمَثَلِ الْأَوَّلِ لَمْ يَمْشُوا فِي الْإِضَاءَةِ، وَقَدْ مَشَى هَؤُلَاءِ، وَكُلُّ هَذَا الَّذِي أَقُولُهُ فِي التَّحْلِيلِ اللَّغَوِيِّ سَهْلٌ وَمَيْسُورٌ لِمَنْ تَدَرَّبَ عَلَى هَذَا،

---

=الكَلَاءُ وَالْعُشْبُ الْكَثِيرُ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ؛ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيَعَانُ لَا تُمَسِّكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَاءً؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»، صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ، كِتَابُ: الْعِلْمِ، بَابُ: فَضْلُ مَنْ عَلِمَ وَعَلَّمَ، حَدِيثٌ رَقْمُ (٧٩).



ولكن الذي ليس بسهل هو تفسير هذه الأحوال عند المُشَبَّه، وإذا كان التشبيه الأول فيه إشارات ترجع به إلى الذين كفروا فإننا نقول من غير رَوِيَّةٍ إنَّ هذا تشبيه الذين ذُكِرُوا بعدهم في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، وليس عندي الآن في علاقة المثل بسلوكمهم إلَّا أنهم قالوا آمنا وليسوا مؤمنين، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣]، ﴿وَإِذَا لُقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، أقول: ليس عندي الآن أكثر من القول بأن هذا الاضطراب الذي في مثل ذوي صَيِّبٍ هو صورة من هذا الاضطراب الذي عاشوه، أمَّا التفسير الجزئي للصواعق، ووضع الأصابع في الآذان، وخطف البرق للأبصار، والمراد بذلك وغيره، وكيف أصنّفه على دقائق سلوكهم فليس عندي علمٌ بذلك، ومن قال: «لا أدري» فقد أجاب.

### سياق تشبيه سورة «النور»

أمَّا الذي في سورة «النور» فهو طريق آخر، لم أدرك منه إلَّا ما أقوله، وهو أنَّ الرِّجَالَ الذين لم تُلْهِهِمْ تجارة ولا بيعٌ عن ذكر الله، وأنَّ الله -سُبْحَانَهُ- يجزيهم أحسنَ ما عَمِلُوا ويزيدهم مِن فضله، وأنَّ هذا العطاء الأخير هو الذي اجتذب إلى السِّياقِ ذَكَرَ أعمال الذين كفروا، وأنَّها كَسَرَابٌ.. إلى آخره - أقول: هؤلاء الرِّجَالَ الذين هذا شأنهم إنما

أنتجهم دينُ الله وشرعه ونوره الذي وقفت الآيات عند بيانه، وصورت  
هذا البيان تصويراً لم يتكرر في الكتاب العزيز، وإذا كانت أعمال الذين  
كفروا التي هي كالسراب جاءت مُقابلةً للجزاء بالأحسن والزيادة من  
الفضل، فإنَّ الظُّلُمات التي بعضها فوق بعض هي التي أنتجت أصحاب  
هذه الأعمال التي هي كالسراب، وقابل آية النور بآية ظلمات البحر  
اللُّجِّي تجذ طريقة تركيب المعنى تكاد تقول لك: هذه مقابلات، وإنَّك  
بين ضريئين من ضروب الحياة والسلوك الإنساني: ضَرْبٍ يَعِيشُ فِي نُورٍ  
ما أنزله الله، وضَرْبٍ يَعِيشُ مُنْقَطِعاً عَنْ هَذَا النُّورِ، وإذا كان مَثَلُ نُورِهِ  
- سبحانه - كمشكاة.. إلى آخره فإنَّ مَثَلِ الظُّلُماتِ المُنْقَطِعَةِ عَنْ نُورِهِ  
كَمَثَلِ بَحْرِ لُجِّي.. إلى آخره. ضَعُ قولَه تعالى: ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ  
مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ [النور: ٤٠] بإزاء قولَه تعالى: ﴿كَيْشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ  
الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [النور: ٣٥] تجذ طريقة البناء  
واحدة وإن اختلف المعنى أشدَّ الاختلاف: هذا بيانٌ لَمَثَلِ نُورِ الله،  
وهذا بيانٌ لَمَثَلِ الظُّلُماتِ التي يعيش فيها الإنسان بِمَعْزِلٍ عَنْ دِينِ الله،  
وَضَعُ قولَه تعالى: ﴿ثُورٌ عَلَى ثُورٍ﴾ [النور: ٣٥] بإزاء قولَه - جل شأنه -:  
﴿ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠] تجذ الرِّابِطَ بَيْنَ الصُّورِ، ثُمَّ ضَعُ  
قولَه تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥] بإزاء قولَه: ﴿وَمَنْ لَمْ  
يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]، هذا الرِّبْطُ الواضِحُ بَيْنَ مَثَلِ  
الظُّلُماتِ وَمَثَلِ النُّورِ يَعْنِي أَنَّ الَّذِي اسْتِضَاءَ بِنُورِ الله وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً  
جَزَاهُ الله بِأَحْسَنِ مَا عَمِلَ وَزَادَهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَنَّ الَّذِي انْقَطَعَ عَنْ نُورِ الله

فهو في هذه الظُّلُمَات التي يَرَكَّبُ بعضها بعضًا، وعَمَلُهُ ضائعٌ منه فيها. وهذا ما عندي، وَمَنْ يُعْطِ ما عنده فقد وفَّى.

وَبَقِيَ أَنْ أُشِيرَ إِلَى واحدةٍ من أكاذيب زماننا، وهي أَنَّ الذَّاكِرِينَ لِنُورِهِ وَشَرْعِهِ يُسَمِّيهِمْ زَمَنُ الْعَجَائِبِ «ظَلَامِيَّينَ»، والمُبْتَعِدِينَ عنه هم «المُنْتَوِرُونَ»!! وهذا لَا يُزْعِجُنِي؛ لَأَنَّهُ زَبَدٌ، وأخبرنا رَبُّنَا أَنَّ الزَّبَدَ يَذْهَبُ جُفَاءً وَأَنَّ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ يَمَكُثُ فِي الْأَرْضِ، وَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهُوا.. وَعَجِيبَةٌ جَدًّا كَلِمَةُ إِرَادَةِ إطفاءِ نُورِ اللَّهِ، وكأنَّهَا نَزَلَتْ لِمَا نَحْنُ فِيهِ.

قُلْتُ: هذا مِنَ الْمَسْكُوتِ عنه وليس صريحًا في كلام أبي العَبَّاس، وكلُّ الذي كان من أبي العَبَّاس أَنَّهُ ذَكَرَ ذِرَاعِي الْمُدَّةِ وَذِرَاعِي الْبَدِئَةِ، وَأَنَّ هذا يقوِّدُ قارئه إِلَى البحثِ عن مُناسِبَةِ الْمُدَّةِ وَالْبَدِئَةِ، وَأَنَّ هذا أَفْضَى إِلَى نظائِرِهِ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَأَنَّ هذا النَّظِيرَ أَفْضَى إِلَى ذِكْرِ تَشْبِيهِ عَقَبَ تَشْبِيهِ مَفْصُولًا بَيْنَهُمَا بِكَلِمَةِ «أَوْ»، وَقَدْ يَجِدُ اللَّاحِقُ فِي كَلَامِ السَّابِقِ شَيْئًا غَامِضًا فَيُبَيِّنُهُ، أَوْ إِشَارَةً خَاطِفَةً فَيَقِفُ عِنْدَهَا، أَوْ أَنْ يُشِيرَ كَلَامُ السَّابِقِ فِي نَفْسِ اللَّاحِقِ شَيْئًا فَيُعَالِجُهُ، سواء أَرَادَهُ السَّابِقُ أَوْ لَمْ يُرِدْهُ.

وَمِنْ طَرِيفِ ذَلِكَ أَنَّ أَبَا الْعَلَاءِ سَأَلَ امْرَأَ الْقَيْسِ وَهُوَ فِي الْجَحِيمِ، عَلَى لِسَانِ ابْنِ الْقَارِحِ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ اخْتَلَفُوا فِي قَوْلِكَ كَذَا؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَرَادَ كَذَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَرَادَ كَذَا، وَذَكَرَ لَهُ ثَلَاثَةَ آرَاءَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ امْرَأُ الْقَيْسِ أَرَادَهَا كُلَّهَا؛ لِأَنَّهَا مُخْتَلِفَةٌ، فَقَالَ لَهُ امْرَأُ الْقَيْسِ: كُلُّهُمْ عَلَى صَوَابٍ<sup>(١)</sup>. يَعْنِي بِهَذَا الْجَوَابِ: إِنَّ مُرَادِي لَيْسَ مُلْزِمًا لِمَنْ يَقْرَأُ شِعْرِي،

(١) أورد أبو العلاء المَعْرِيَّ هذا الْحِوَارَ فِي «رِسَالَةِ الْغُفْرَانِ»، وَبَيَّنَّه أَنْ ابْنَ الْقَارِحِ سَأَلَ امْرَأَ الْقَيْسِ: أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِكَ: [مِن الطَّوِيلِ]

وإنما له ما أردت، وله ما لم أرد، وأُضِيفُ: إنَّ له أيضًا ما أثاره كلامي في نفسه من معنى؛ لأنَّه لولا كلامي ما ثارَ في نفسه هذا المعنى.

وأرى أن هذا هو طريقُ نُمُو المعرفة، ومنهَجُ قراءة اللّاحقِ للسّابق، وإلّا لما صحَّ للأخفش أن يقول: مات سيبويه وهو أعلمُ بـ«الكتاب» منِّي، وأنا الآن أعلمُ بـ«الكتاب» منه<sup>(١)</sup>، ولا يُمكن أن تكون أعلمَ بالكتابِ من مؤلِّفه إذا عزَلتَ ما يُثيره الكتابُ في نفسك من أفكار.

= ماذا أردت بـ«البكر»؛ فقد اختلف المتأولون في ذلك؛ فقالوا: البَيَضَةُ، وقالوا: الدرَّةُ، وقالوا:

الرَّوَضَةُ، وقالوا: الزَّهْرَةُ، وقالوا: البرْدِيَّةُ؟!

وكيف تُنشدُ: «البياض» أم «البياض» أم «البياض»؟!

فقال له امرؤ القيس: كلُّ ذلك حسنٌ، وأختار «البياض» بالكسر. يُنظر: رسالة الغفران، ص ٣١٤. ومُرادُ شيخنا أبو موسى بقوله: «وذكر له ثلاثة آراء لا يُمكن أن يكون امرؤ القيس أرادها كلّها؛ لأنها مختلفة» هو ما ذكره ابنُ الفَراحِ من الوجوه الإعرابية في كلمة «البياض».

(١) كرّر شيخنا أبو موسى سَوَقَ هذه العبارة منسوبة إلى الأخفش في كتابه «مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، ص ٧»، وقد بحثتُ عنها فيما تيسّر لي فلم أقع عليها، وكل ما وجدته في مسألة «الأعلم بكتاب سيبويه» أن أبا الفضل الرّياشي قرأ كتاب سيبويه على المازني؛ فكان المازني يقول: «يقرأ عليّ كتاب سيبويه وهو أعلمُ به منِّي»، يُنظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٣/ ٣٦.

وبفرض وجود هذه المقالة فإن عِلَّةَ إثباتها للأخفش - وهو الأخفش الأوسط - سعيد ابنُ مسعدة - هي صلته الوثقى بسيبويه، وأنه كان يُقرأ عليه «الكتاب» بعد موت سيبويه، وفي ذلك يقول السّيرافي: «وأما الأخفش فهو من مشهوري نحوِّي البصرة، وهو أحدُ أصحابِ سيبويه، وهو أسنُّ منه فيما يُروى، ولقي من لقيه سيبويه من العلماء، والطريق إلى كتاب سيبويه الأخفش؛ وذلك أن كتاب سيبويه لا نعلم أحدا قرأه على سيبويه، ولا قرأه عليه سيبويه، ولكنه لما مات سيبويه قرئ الكتابُ على أبي الحسن الأخفش، وكان ممن قرأه أبو عمر الجرمي وأبو عثمان المازني»، أخبار النّحويّين البصريّين، ص ٣٩ (بتصرف يسير).

تحدّث أبو العبّاس في وجوه من التشبيه سكّتها البلاغيّون، وسكّتها عن أشياء تحدّث فيها البلاغيّون، وأوّل ما يلفت فيما سكّته عنه وتحدّثوا فيه هو أنّ شواهد التشبيه الكثيرة التي ذكرها فيها كلّ أقسام التشبيه عند البلاغيّين؛ فيها: المفرد، والمركّب، والتّمثيل، وتشبيه الحسّيّ بالحسّيّ والعقليّ بالحسّيّ، والقريب المبتذلّ، والبعيد الغريب، والصّريح، والضّمنيّ، والمرسل، والمؤكّد.. إلى آخره، ولكنّ أبا العبّاس كان منصرفاً عن هذه التقسيمات، ولو أرادها وطلبها لوجدّها؛ لأنّها قريبة من كلّ من يفهم الشعر، وقد رأيتّه وهو يشرح معاني الشعر يشير إلى ضروب من المجاز كانت من أواخر ما كتب البلاغيّون، ورأيتّه يصلّ إليها بسهولة شديدة جدّاً.

ذكر قول امرئ القيس: [من الطويل]

كَانَ أَبَانًا فِي أَفَانِينَ وَذَقَهُ كَبِيرُ أَنْاسٍ فِي بَجَادٍ مُزْمَلٍ<sup>(١)</sup>

وأشار إلى أنّه يحتمل معنيّن؛ أحدهما: أن يكون المراد أنّ المطر أحاط بالجبل إحاطة البجاد - الذي هو الثياب المخطّط - بكبير أناسٍ مُزْمَلٍ، أي: ملفوفٍ بشيابه. ومعروف أنّ كلمة «مُزْمَلٍ» وصفتُ لكلمة «كَبِيرُ» التي هي خبر «كَانَ»، والأصل أن يكون «مُزْمَلٍ» مرفوعاً تابعاً للموصوف في إعرابه، ولكنّه جاء بالجَرِّ لمُجاوَرَتِهِ كلمة «بَجَادٍ»، هذا وجه، والوجه الثاني: أن يكون المراد أنّ الذي أحاط بالجبل خُضرة النّبات، ويكون

(١) في ديوانه، ص ٢٥. و«أبان»: اسمُ جبل، وهما أبانان؛ أبيض وأسود، وكلاهما مُحدّد الرأس كالسّنان. يُنظر: مُعجم البلدان ١/ ٦٢.

«الْوَبْل» الذي هو المطر مُرادًا به النَّبات، وعُبر عن النَّبات بالمطر؛ لأنه سَبَبُهُ، وقد جاء هذا في كلامهم، واعتبروا أنَّ الذي في السَّحاب هو أَسْنِمَةٌ الإبل، وذلك في قول الشَّاعر: [من الرجز]

### أَسْنِمَةُ الْإِبَالِ فِي سَحَابِهِ<sup>(١)</sup>

والذي في السَّحاب ماءٌ، ولَمَّا كانت الْأَسْنِمَةُ - أعني: سِمَنُهَا - عن الماء تكونُ عَبرًا بِالْأَسْنِمَةِ عن الماء، وهذا وَجْهٌ آخَرُ مِنْ وُجُوهِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ وعِلَاقَةٌ أُخْرَى؛ لِأَنَّ التَّعْبِيرَ بِالْمَاءِ عَنِ النَّبَاتِ تَعْبِيرٌ بِالسَّبَبِ عَنِ الْمُسَبَّبِ، وَالتَّعْبِيرُ بِالْأَسْنِمَةِ عَنِ الْمَاءِ تَعْبِيرٌ بِالسَّبَبِ عَنِ الْمُسَبَّبِ، وَذَكَرَ أَبُو الْعَبَّاسِ مَعَ ذَلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أَرِنِّي أَغَصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦]، أَي: عِنَبًا يَوْوُلُ إِلَى الْخَمْرِ<sup>(٢)</sup>.

وهكذا رأينا أبا العباس يذكّر المجازَ المُرسَل، وإن كان لم يُسمِّه، ويذكر بعض علاقاته بسهولةٍ شديدة؛ لأن هذا المجازَ وهذه العلاقات كُلُّ ذلك في الشُّعر وفي معنى الشُّعر، وما دام القارئُ قادِرًا على إدراك معنى الشُّعر فهو قادِرٌ على إخراج كُلِّ هذا، وكُلِّ فُنُونِ الْبَلَاغَةِ ساكنةٌ في الشُّعر، وكانت أقربَ إلى ألسنةِ الباحثين في معاني الشُّعر، وَجَرَتْ أَلْسِنَتُهُمْ بِيَعِضِهَا قَبْلَ أَنْ تَجْرِيَ بِهَا أَلْسِنَةُ الْبَاحِثِينَ عَنِ الْقَوَاعِدِ.

(١) أوردته السكاكي في مفتاح العلوم ص ٣٦٥، والقزويني في الإيضاح ص ٢٠٨، ولم ينسبه أحد منهم، والبيت بتمامه:

أَقْبَلَ فِي الْمُسْتَنَّى فِي رَبَائِهِ      أَسْنِمَةُ الْإِبَالِ فِي سَحَابِهِ

(٢) يُنظر: الكامل ٣/ ٦٨ - ٦٩.

أَمَّا الَّذِي ذَكَرَهُ وَسَكَتُوا عَنْهُ فَهُوَ تَقْسِيمُهُ التَّشْبِيهَ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى إِلَى تَشْبِيهِ فِيهِ إِفْرَاطًا، يَعْنِي: مَبَالِغَةً، وَتَشْبِيهِ مُقْتَصِدًا، وَتَشْبِيهِ مُقَارِبًا، وَتَشْبِيهِ بَعِيدًا.

والتَّشْبِيهُ الْمُقْتَصِدُ هُوَ الْمُقْتَصِدُ فِي الْإِفْرَاطِ؛ حَتَّى يَكُونَ هُنَاكَ مَكَانٌ لِلتَّشْبِيهِ الْقَرِيبِ. وَالبَعِيدُ هُوَ الْمُشْكِلُ الَّذِي يَحْتَاجُ بَيَانَهُ إِلَى شَرْحٍ، وَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ «أَخْشَنُ الْكَلَامِ»؛ مِنْ الْخُشُونَةِ<sup>(١)</sup>.

وَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَفْضَلَ طَرِيقًا عَلَى طَرِيقٍ؛ لِأَن تَقْسِيمَ الْبَلَاغِيِّينَ الْمُؤَسَّسَ عَلَى أَرْكَانِ التَّشْبِيهِ، وَتَوَزِيعَ مَبَاحِثِهِ عَلَى الْمُشَبَّهِ وَالْمُشَبَّهِ بِهِ وَالْوَجْهَ وَالْأَدَاةَ كُلَّ ذَلِكَ لَا يُسْتَغْنَى عَنْهُ، وَإِنَّمَا أُرِيدُ أَنْ أَضَعُ الْيَدَ عَلَى تَقْسِيمِ آخَرَ لِرَجُلٍ وَصَفَهُ أَبُو الْفَتْحِ بْنُ جَنِّيٍّ بِأَنَّهُ جَبَلٌ مِنْ جِبَالِ الْعِلْمِ<sup>(٢)</sup>، وَهُوَ لَا يَجُوزُ أَنْ تَتْرَكَ فِي كَلَامِهِمْ شَيْئًا يُمَكِّنُ أَنْ يُتَنَفَّعَ بِهِ، وَأَنْ نَضُمَّ كَلَامَهُمْ إِلَى كَلَامِ غَيْرِهِمْ؛ حَتَّى يَكُونَ هُنَاكَ تَكَامُلٌ فِي طَرَائِقِ الْأَثْمَةِ.

ذَكَرَ أَبُو الْعَبَّاسِ مِنَ التَّشْبِيهِ الْمُفْرِطِ قَوْلَ بَكْرِ بْنِ النَّطَّاحِ يَمْدَحُ أَبَا دَلْفٍ الْقَاسِمَ بْنَ عَيْسَى: [مِن الطَّوِيلِ]

لَهُ هِمَمٌ لَا مُتْتَهَى لِكِبَارِهَا      وَهَمَّتْهُ الصُّغَرَى أَجَلٌ مِنَ الدَّهْرِ  
لَهُ رَاحَةٌ لَوْ أَنَّ مِعْشَارَ جُودِهَا      عَلَى الْبَرِّ صَارَ الْبَرُّ أُنْدَى مِنَ الْبَحْرِ

(١) يُنْظَرُ: الْكَامِلُ ٣/ ٩٥.

(٢) وَصَفَهُ ابْنُ جَنِّيٍّ بِذَلِكَ عَقِبَ سَوْقِهِ مَذْهَبَهُ فِي أَنْ عَامِلَ النَّصْبِ فِيمَا بَعْدَ «إِلَّا» فِي الْإِسْتِثْنَاءِ هُوَ نَاصِبٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ مَعْقُودُ الْكَلَامِ؛ قَالَ: «وَهَذَا وَإِنْ كَانَ مَذْهَبًا مَدْخُولًا عِنْدَنَا، وَهُوَ بَضْدُ الصَّوَابِ الَّذِي هُوَ مَذْهَبُ سَيُوبَةَ، فَقَدْ قَالَ بِهِ رَجُلٌ يُعَدُّ جَبَلًا فِي الْعِلْمِ، وَإِلَيْهِ أَفْضَتْ مَقَالَاتُ أَصْحَابِنَا، وَهُوَ الَّذِي نَقَلَهَا وَقَرَّرَهَا، وَأَجْرَى الْفُرُوعَ وَالْعِلَلُ وَالْمَقَايِيسَ عَلَيْهَا»، سِرْ صِنَاعَةِ الْإِعْرَابِ ١/ ١٤٦.

وَلَوْ أَنَّ خَلَقَ اللَّهُ فِي مَسْكِ فَارِسٍ وَبَارَزَهُ كَانَ الْخَلِيِّ مِنَ الْعُمَرِ<sup>(١)</sup>

قوله: «لَا مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا» مِنَ الْإِفْرَاطِ الْمُبَالِغِ فِيهِ، وَلَيْسَ فِيهِ تَشْبِيهِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ إِنْسَانٌ لَهُ صِفَةٌ لَا مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا؛ لِأَنَّ الَّذِي لَا مُنْتَهَى لَجَلَالِ صِفَاتِهِ هُوَ الْحَقُّ وَحْدَهُ، وَلَعَلَّ الشَّاعِرَ نَظَرَ إِلَى هَذَا.

وقوله: «وَهَمَّتْهُ الصُّغَرَى أَجَلَ مِنَ الدَّهْرِ» تَشْبِيهُ يُفْضَلُ فِيهِ الْمُشَبَّهُ عَلَى الْمُشَبَّهِ بِهِ؛ كَقَوْلِهِمْ: «أَشْجَعُ مِنَ الْأَسَدِ، وَأَجْوَدُ مِنَ الْبَحْرِ، وَأَمْضَى مِنَ السَّيْفِ»، وَالْإِفْرَاطُ هُنَا ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّ الدَّهْرَ لَا يُغَالَبُ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَهْلَكَ عَادًا وَثَمُودَ وَالْقُرُونَ الْأَوَّلَ، وَهُوَ الَّذِي أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيرَ.

والتَّشْبِيهُ بِالْدَّهْرِ نَادِرٌ، وَإِنَّمَا يُشَبَّهُ بِهِ لَيْسَ مِنْ نَاحِيَةِ جَلَالِهِ، وَإِنَّمَا يُقَالُ: «هُوَ كَالدَّهْرِ مَبْنُوثًا حَبَائِلُهُ»<sup>(٢)</sup>، يَعْنِي: لَا يَنْجُو مِنْهُ أَحَدٌ.

وقوله: «لَهُ رَاحَةٌ...» إِلَى آخِرِهِ، أَصَابَ الشَّاعِرُ فِي اخْتِيَارِ كَلِمَةِ «رَاحَةٌ» بَدَلَ «يَدٍ» أَوْ «كَفٍّ» أَوْ «يَمِينٍ»؛ لِأَنَّ الْكَرِيمَ تُعْطِي رَاحَتَهُ بَارِزِيَّةً، وَكَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ آخِذُهُ<sup>(٣)</sup>، ثُمَّ كَدَّرَ ذَلِكَ بِالْإِفْرَاطِ، وَذَكَرَ مِعْشَارَ جُودِهَا، وَالْبَرُّ لَمْ يُذَكَّرْ بِالْجُودِ، وَإِنَّمَا الَّذِي انْطَبَعَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ هُوَ جُودُ الْبَحْرِ،

(١) يُنْظَرُ: الْكَامِلُ ٣/ ٩٥.

(٢) هُوَ مِنْ قَوْلِ سَلَمِ الْخَاسِرِ يَعْتَذِرُ إِلَى الْمَهْدِيِّ: [مِنْ الْبَسِطِ]

وَأَنْتَ كَالدَّهْرِ مَبْنُوثًا حَبَائِلُهُ وَالْدَّهْرُ لَا مَلْجَأَ مِنْهُ وَلَا هَرْبُ

الْعُمْدَةُ فِي مَحَاسِنِ الشُّعْرِ وَآدِبِهِ وَنَقْدِهِ ٢/ ١٧٨.

(٣) هُوَ مِنْ قَوْلِ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ: [مِنْ الطَّوِيلِ]

تَرَاهُ إِذَا مَسَّ جِثَّتُهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

وَهُوَ فِي دِيْوَانِهِ بِشْرَحِ أَبِي الْعَبَّاسِ ثَعْلَبٍ، ص ١٤٢.



وَبَكَرُ بْنُ النَّطَّاحِ يَعْكِسُ مَا طُبِعَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ، وَانْتَقَلَ مِنْ مَبَالِغَةِ إِلَى مَبَالِغَةٍ، وَكَأَنَّ هَذَا الْوَلَعَ بِالْمَبَالِغَةِ اسْتَفْزَهُ فَنهَضَ خَيَالُهُ يَخْلُقُ هَذِهِ الصُّورَةَ الْعَجِيبَةَ الَّتِي فِي الْبَيْتِ الثَّالِثِ.

وَلَمْ أَجِدْ فِي كَلَامِ أَبِي الْعَبَّاسِ مَا يَدُلُّ عَلَى رَأْيِهِ فِي هَذَا الشَّعْرِ، وَلَا مَا يَدُلُّ عَلَى رَأْيِهِ فِي الْإِفْرَاطِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَضَعْ أَصُولًا لِلِاسْتِحْسَانِ، وَلَكِنَّهُ ذَكَرَ أَيْبَاتًا لِلنَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ فِي رِثَاءِ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرِ الْفَزَارِيِّ، فِيهَا إِفْرَاطٌ لَا يَقِلُّ عَنْ إِفْرَاطِ أَيْبَاتِ بَكَرِ بْنِ النَّطَّاحِ، وَقَدَّمَ لَهَا بِكَلَامٍ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْهَمَ مِنْهُ رَأْيَهُ فِي الْإِفْرَاطِ؛ قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: وَمِنْ عَجِيبِ التَّشْبِيهِ فِي إِفْرَاطِ، غَيْرَ أَنَّهُ خَرَجَ فِي كَلَامٍ جَيِّدٍ، وَعَنِي بِهِ رَجُلٌ جَلِيلٌ، فَخَرَجَ مِنْ بَابِ الْإِحْتِمَالِ إِلَى بَابِ الْإِسْتِحْسَانِ، ثُمَّ جُعِلَ لِحُجُودَةِ أَلْفَاظِهِ، وَحُسْنِ رَصْفِهِ، وَاسْتِوَاءِ نَظْمِهِ، فِي غَايَةِ مَا يُسْتَحْسَنُ - قَوْلُ النَّابِغَةِ يَعْنِي حِصْنُ بْنُ حُذَيْفَةَ ابْنِ بَدْرِ بْنِ عَمْرِو الْفَزَارِيِّ: [مِنْ الطَّوِيلِ]

يَقُولُونَ حِصْنُ ثُمَّ تَأْبَى نَفْسُهُمْ      وَكَيْفَ بِحِصْنٍ وَالْجِبَالُ جُنُوحُ  
وَلَمْ تَلْفِظِ الْمَوْتَى الْقُبُورُ وَلَمْ تَزُلْ      نُجُومُ السَّمَاءِ وَالْأَدِيمُ صَحِيحُ  
فَعَمَّا قَلِيلٍ ثُمَّ جَاءَ نَعِيُّهُ      فَظَلَّ نَدِيُّ الْحَيِّ وَهُوَ يَنُوحُ<sup>(١)</sup>

وَالْكَلَامُ الَّذِي قَدَّمَ بِهِ أَبُو الْعَبَّاسِ كَلَامٌ جَيِّدٌ، وَيَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ الشَّاعِرَ الْجَيِّدَ الصَّنْعَةَ يَشْغَلُنَا بِجُودَةِ صَنْعَتِهِ عَنْ شَيْءٍ فِي الشَّعْرِ لَوْلَا هَذِهِ الْجُودَةُ لَا نَكْرَنَاهُ، وَأَفْهَمُ مِنْ هَذَا أَيْضًا أَنَّ بَكَرَ بْنَ النَّطَّاحِ لَمْ يَشْغَلُنَا بِجُودَةِ الصَّنْعَةِ عَنِ الْإِفْرَاطِ الْمُسْتَقْتَلِ فِي أَيْبَاتِهِ، وَيَكَادُ يَكُونُ قَوْلُهُ: «لَهُ هِمَمٌ لَا مُنْتَهَى

لِكِبَارِهَا» خَالِيًا مِنْ أَيِّ صَنْعَةٍ، حَتَّى إِنَّهُ لَمَّا عَوَّلَ عَلَى الْخِيَالِ جَاءَ بِمَا لَا يَرْتَقِي إِلَى دَرَجَةِ الْإِعْجَابِ، وَكَأَنَّ أَبَا الْعَبَّاسِ بِكَلَامِهِ فِي آيَاتِ النَّابِغَةِ دَلٌّ عَلَى رَأْيِهِ فِي كَلَامِ ابْنِ النَّطَّاحِ.

وَجَيِّدَةٌ جَدًّا كَلِمَتُهُ الَّتِي قَالَ فِيهَا: «خَرَجَ مِنْ بَابِ الْإِحْتِمَالِ إِلَى بَابِ الْإِسْتِحْسَانِ»، يَعْنِي: لَمْ يَعُدَّ الشُّعْرُ يُقَاسُ بِمَقَايِيسِ الْإِحْتِمَالِ، الَّذِي هُوَ الْقُرْبُ مِنَ الْوَاقِعِ أَوْ الْبُعْدُ عَنْهُ أَوْ الْجُنُوحُ فِي الْإِفْرَاطِ؛ لِأَنَّ الشَّاعِرَ الْجَلِيلَ نَقَلَكَ إِلَى عَالَمِ الشُّعْرِ، الَّذِي هُوَ عَالَمُ التَّجْوِيدِ وَالتَّثْقِيفِ، فَصَرَّتْ إِلَى الْإِسْتِحْسَانِ، وَالْإِسْتِحْسَانِ وَحْدَهُ.

وَوَصَفُ أَبِي الْعَبَّاسِ لِلنَّابِغَةِ بِأَنَّهُ «رَجُلٌ جَلِيلٌ» وَصَفٌ جَيِّدٌ؛ لِأَنَّ النَّابِغَةَ أَتَتْهُمْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ وَهُوَ مَظْلُومٌ.

وَمِنَ الْوَاجِبِ أَنْ نَقِفَ عِنْدَ كَلَامِ أَبِي الْعَبَّاسِ، الَّذِي هُوَ «جُودَةُ أَلْفَاظِهِ، وَحُسْنُ رَضْفِهِ، وَاسْتَوَاءُ نَظْمِهِ»، وَكَلِمَةُ «جُودَةُ أَلْفَاظِهِ» كَلِمَةٌ عَامَّةٌ، بَيْنَهَا أَبُو الْعَبَّاسِ بِحُسْنِ الرَّضْفِ وَاسْتَوَاءِ النَّظْمِ، ثُمَّ إِنَّ حُسْنَ الرَّضْفِ وَاسْتَوَاءَ النَّظْمِ يُمْكِنُ الْإِسْتِغْنَاءُ بِأَحَدَاهُمَا عَنِ الْآخَرَى، وَكَأَنَّ الْكَلَامَ سَيَنْتَهِي عِنْدَ اسْتَوَاءِ النَّظْمِ، الَّذِي جَعَلَهُ عَبْدُ الْقَاهِرِ «عَمُودَ الْبَلَاغَةِ»؛ فَمَا هُوَ حُسْنُ النَّظْمِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ؟ مِنَ السَّهْلِ جَدًّا أَنْ نُكْرِّرَ كَلَامَ أَبِي الْعَبَّاسِ، وَمِنَ الصَّعْبِ جَدًّا أَنْ نَبْحَثَ عَنْ حَقِيقَةِ مَعْنَاهُ فِي الشُّعْرِ؛ فَأَيُّ شَيْءٍ رَأَاهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَوَصَفَهُ بِاسْتَوَاءِ النَّظْمِ؟ أَقُولُ: هَذَا سُؤَالٌ لَا يَجُوزُ الْهَرُوبُ مِنْهُ، وَلَيْسَ لَهُ جَوَابٌ إِلَّا جَوَابٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ التَّفْتِيشُ فِي الشُّعْرِ؛ لِاسْتِخْرَاجِهِ مِنْهُ.

وأوّل ما أجدّه في هذه الأبيات هو أن النّابغة ابتعدَ عن النّاس الذين أهالهم موتُ حِصْن، ولم يجعل نفسه منهم، وإنّما كان شاعراً يرى ويرصد، وليس باكيّاً يُنوحُ مع مَنْ ناح، وهذا من شأنه أن يُقرب إليه القارئ؛ لأنّه يرى الشاعر بعيداً عن التّهويل، وإنّما التّهويل كان من غيره، وليس هو إلا حاكياً يحكي ما رأى وما سمع، وهذا هو سرُّ ضمير الغيبة وصيغة المضارع الدّالة على أن هؤلاء القومَ تكرّر منهم هذا وتجدّد، وكأنهم لا يزالون يقولون.

وقوله: «ثُمَّ تَأْبَى نَفْسُهُمْ»، ارتقت هذه الجملة بالشّعر إلى المستوى الذي ينقلك من باب الاحتمال إلى باب الاستحسان؛ لأنّ نفوسَ القوم لم تُساعدهم على أن يُتمّوا الجملة وأن يأتوا بالخبر الذي تتمُّ به الفائدة، وتأمّ الجملة: «حِصْنٌ هَلَك، أو مات»، وكلمة «ثُمَّ» في قوله: «ثُمَّ تَأْبَى نَفْسُهُمْ» فيها معنى أنهم استبعدوا ما وجدوا، وأن رَفَضَ الألسنة أن تنطقَ ببقية الجملة بعد أن بدّأتها عجيبٌ وغريبٌ ولا عهدَ لهم به، وذكر الشّيخ الطّاهر ابنُ عاشور أن هذا المعنى من مُبتكرات النّابغة<sup>(١)</sup>، وهو كما قال، وإن كان إنكارُ النفوسِ لبعض ما تجدّد - لهوْلُه وبشاعته - أمراً قديماً وجزءاً من الفِطرة، تراه عند العامّة كما تراه عند الخاصّة، أمّا هذا التّصويرُ الذي هو «يَقُولُونَ حِصْنٌ ثُمَّ تَأْبَى نَفْسُهُمْ» فهو من مُبتكرات النّابغة، وكذلك ما بعده من قوله: «فَكَيْفَ بِحِصْنٍ...» إلى آخره.

(١) ديوان النّابغة الذّبيانيّ بشرح الشّيخ محمّد الطّاهر ابنِ عاشور، ص ٧٤، وعبارة الطّاهر هي: «وهذا معنى لم أره لغير النّابغة».

وَمِنَ الْمُهِمِّ أَنْ نُحْسِنَ فَهَمَ قَوْلِهِمْ: «فَكَيْفَ بِحِصْنٍ»، وهذه الفاء يَغْلِبُ عليها أَنْ تَكُونَ فاءَ اسْتِثْنافٍ؛ لِأَنَّ الْقَوْمَ وَهُمْ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ الَّتِي أَخْرَسَهُمْ فِيهَا هَوْلُ النَّبَأِ حَتَّى تَجَمَّدَتْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَبَتْ نَفُوسُهُمْ أَنْ تَنْطِقَ بِمَا يَتِمُّ بِهِ الْكَلَامُ - كَأَنَّمَا غَشِيَتْهُمْ حَالَةٌ مِنَ التَّيِّهِ وَافْتِقَادِ الْعَقْلِ، وَوَهْمُوا أَنَّ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ مِنْ حَوْلِهِمْ لَمْ تَنْهَدْ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ حِصْنًا لَمْ يَمُتْ؛ لِأَنَّهُ لَوْ مَاتَ لَقَامَتْ قِيَامَتُهَا؛ لِأَنَّهُ لَا تَبْقَى مَعَ الْحُزَنِ كَمَا يَبْقَى النَّاسُ، وَإِنَّمَا حُزْنُهَا يَعْنِي مَحْوَ مَا هِيَ أَتَاهَا، فَلَا تَبْقَى الْجِبَالُ قَائِمَةً، وَلَا يَبْقَى الْمَوْتَى فِي قُبُورِهِمْ، وَلَا تَبْقَى نَجُومُ السَّمَاءِ، وَلَا تَبْقَى السَّمَاءُ، وَإِنَّمَا كُلُّ ذَلِكَ يَدْخُلُ بَابَ الْعَدَمِ.

حَالَةُ الْوَهْمِ هَذِهِ، وَحَالَةُ الْغَشْيَانِ، وَذَهَابُ الْوَعْيِ الَّذِي اعْتَرَى الْجَمَاعَةَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: «حِصْنٌ ثُمَّ تَأْبَى نَفُوسُهُمْ» كَانَتْ اسْتِرَاحَةً، وَهُمْ عَاشُوهَا آمِلِينَ أَلَّا يَكُونَ مَا حَبَسَ أَلْسِنَتَهُمْ صَحِيحًا.

وَيُلَاحَظُ أَنَّ الْجُمْلَةَ الْأَرْبَعَةَ الَّتِي هِيَ أَسَاسُ هَذِهِ الْآيَاتِ وَحَوَامِلُ مَعْنَاهَا وَقَعَتْ كُلُّهَا حَالًا، وَنُسِقتْ نَسْقًا وَاحِدًا، وَأَوَّلُهَا: «وَالْجِبَالُ جُنُوحٌ»، وَهِيَ جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ، عُطِفَ عَلَيْهَا: «وَلَمْ تَلْفِظِ الْمَوْتَى الْقُبُورُ»، ثُمَّ عُطِفَ عَلَيْهَا: «وَلَمْ تَزُلْ نَجُومُ السَّمَاءِ»، ثُمَّ عُطِفَ عَقِبَهَا: «وَالْأَدِيمُ صَحِيحٌ»، وَلَوْ أَبْعَدَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْحَالِيَّةُ لَمْ يَبْقَ فِي الْآيَاتِ شَيْءٌ، وَكَأَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ الْحَالِيَّةَ هِيَ مُعَاقِدُ الْمَعَانِي عِنْدَ أَمْثَالِ النَّابِغَةِ، ثُمَّ إِنَّ الْجُمْلَةَ الْأَخِيرَةَ الَّتِي جَاءَتْ بَعْدَ ذَهَابِ الْغَاشِيَةِ، وَبَعْدَمَا جَاءَ نَعْيُهُ، وَوَعَى مَنْ كَانَ ذَاهِلًا، هِيَ جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ أَيْضًا، وَهِيَ قَوْلُهُ: «وَهُوَ يَنُوحُ»، وَهِيَ خُلَاصَةُ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَكُلُّ هَذَا مِنْ حُسْنِ الرَّصْفِ وَاسْتِوَاءِ النَّظْمِ الَّذِي أَرَادَهُ أَبُو

العبّاس، مع ضرورة حضور شيءٍ إذا غاب فقد غاب معه كل شيء، وهو أن مُرادَ علمائنا باستواء النّظم أو حُسْنِ الرّصف، ومُرادَ عبد القاهر بالنّظم الذي يَرِجِعُ إليه الإعجاز، والذي لو فَتَشْتَ كُلَّ ما بين السّماء والأرض لَتَجِدَ ما يَفْضُلُ به كلامٌ كلامًا فلن تَجِدَ غيرَه، إن كنتَ مِنْ ذَوِي الألباب - أقول: المُرادُ بالنّظم الذي هذا شأنه عند عبد القاهر، واستواء النّظم وحُسْنِ الرّصف الذي هو صَنَعَةُ الرَّجُلِ الجليل الذي خَرَجَ بك من باب الاحتمال إلى الاستحسان، كما يقول سيدنا أبو العبّاس: هو: نَظْمُ هذا المعنى الذي بين يديك في هذه الألفاظ التي بين يديك؛ فالنّظمُ في أبيات «يَقُولُونَ حِصْنٌ» ليس هو رَصَفَ الكلمات وجَعَلَ بعضها بسببٍ من بعضٍ وهي بَعِيدَةٌ عن هذا المعنى، وإنما المُرادُ جَعَلَ بعضها بسببٍ مِنْ بعضٍ للإبانة عن هذا المعنى، الذي هو: «والجِبَالُ جُنُوحٌ» و«لَمْ تَلْفِظِ الْمَوْتَى الْقُبُورُ».. إلى آخره. وإذا قلتَ: إِنَّ آيَةَ الْكُرْسِيِّ بَلَغَ النّظْمُ فيها غايةَ الجودة فلا معنى لهذا إلا أن رَصَفَ الكلمات واستواءَ نَظْمِها للإبانة عَمَّا أَبانتُ عنه آيَةُ الْكُرْسِيِّ بَلَغَ غايةَ الجودة، ولو قلتَ: «حُسْنُ الرّصفِ واستواءُ النّظْمِ في (قَفَا نَبْكَ)» فلا معنى لهذا ألبتة إلا براعةُ امرئ القيس في إدارة أَلْفَاظِهِ على معانيه التي دارتُ عليها أَلْفَاظُهُ في هذه القصيدة.

والخطأ الفادح الذي أفسدَ كُلَّ شيءٍ أننا جَرَدْنَا حُسْنَ الرّصفِ واستواءِ النّظْمِ من المعنى الذي تَلَبَّسَ به هذا الرّصفُ وهذا النّظْمُ، وليس هناك أيُّ وصفٍ للرّصفِ والنّظْمِ إلا وهو مُتَلَبَّسٌ ببيانِ أبانِ عنه النّظْمِ والرّصفِ، ولا بُدَّ مِنْ ملاحظةٍ واعتبارٍ شَطْرِي النّظْمِ؛ الشّطْرِ الأوّل

(تَوَخَّى معَانِي النَّحْوِ بَيْنَ معَانِي الْأَفَاضِ)، وَالشَّطْرُ الثَّانِي (عَلَى وَفَقِ الْأَغْرَاضِ وَالْمَقَاصِدِ)، فَإِذَا شَغَلْنَا الشَّطْرَ الْأَوَّلَ عَنِ الثَّانِي كُنَّا مَعَ تَحْلِيلِ اللُّغَةِ وَكُنَّا ذَاهِلِينَ عَنِ معَانِي الْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ الَّتِي أَبَانَ التَّحْلِيلُ اللُّغَوِيُّ عَنْهَا، يَعْني: كُنَّا مَعَ شَطْرِ الْبَلَاغَةِ اللَّسَانِيِّ ذَاهِلِينَ عَنِ شَطْرِهَا الرُّوْحِيِّ.

ذَكَرَ الشَّيْخُ الطَّاهِرُ ابْنُ عَاشُورٍ أَنَّهُ نَقَلَ عَنْ نُسخَةِ أَبِي جَعْفَرٍ: «وَالْجِبَالُ عَلَى حَالِهَا لَمْ تُهْدَمْ»، ثُمَّ قَالَ: وَلَعَلَّهُ مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: «جَنَحَتِ النَّاقَةُ وَالْجَمَلُ»، إِذَا بَرَكْتَ؛ لِأَنَّهَا إِذَا بَرَكْتَ تَمِيلُ عَلَى أَحَدِ شَقِيهَا فَتَعْتَمِدُ عَلَى جَوَانِحِهَا، وَهِيَ الضُّلُوعُ مِمَّا يَلِي الصَّدْرَ فَهِيَ جَانِحٌ. وَ«جُنُوحٌ» جَمْعُ «جَانِحٍ»، مِثْلُ «قُعُودٌ» جَمْعُ «قَاعِدٌ»، أَي: وَالْجِبَالُ مُسْتَقَرَّةٌ فِي أَمَاكِنِهَا<sup>(١)</sup>.  
انتهى كلام الطاهر.

وَحِصْنُ بْنُ حُذَيْفَةَ الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّابِغَةُ هَذِهِ الْأَيَّاتُ الَّتِي كَانَتْ مِنْ مُبْتَكِرَاتِهِ، كَمَا يَقُولُ الطَّاهِرُ، وَلَمْ يَرِثِ النَّابِغَةُ أَحَدًا بِأَفْضَلٍ مِنْهَا هُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ زُهَيْرٌ قَصِيدَتَهُ الرَّائِعَةُ الَّتِي مَطَّلَعُهَا: [مِنْ الطَّوِيلِ]

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلَمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهُ

كَانَ مِنْ خَبَرِهِ أَنَّ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ؛ الطَّاغِيَةَ الْقَدِيمَ، أَرَادَ أَنْ يَضُمَّهُ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُقْطِعَهُ نَاحِيَةً مِنْ مُلْكِهِ يَكُونُ حِصْنٌ وَالْيَا عَلَيْهَا، وَكَانَ لِحِصْنٍ عِنْدَ هَذَا الطَّاغِيَةِ ثَأْرٌ، فَلَمَّا جَاءَتْهُ رِسَالَةُ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ تَعْرِضُ عَلَيْهِ مُلْكَ نَاحِيَةٍ مِنْ مُلْكِهِ رَدَّ عَلَيْهِ حِصْنٌ رَدًّا مَلَأَ قَلْبَ زُهَيْرٍ وَالنَّابِغَةِ حُبًّا لَهُ؛ لِأَنَّهُ قَالَ لَهُ: «لَمْ أَكُنْ يَوْمًا مَا أَفْرَغَ لِحَرْبِكَ كَالْيَوْمِ، وَلَمْ أَكُنْ أَكْثَرَ عُدَّةً لِقِتَالِكَ كَالْيَوْمِ،

(١) ديوان النَّابِغَةِ الدُّبَيَّانِيِّ بِسَرِّحِ الطَّاهِرِ ابْنِ عَاشُورٍ، ص ٧٤.

وليس لي حِصْنٌ إلا السُّيُوفُ والرِّمَاحُ، وأنا لك بالفَضَاءِ»، فراغ عمرو بن هِنْدٍ من مُواجهته<sup>(١)</sup>، وقد ذَكَرَ زُهَيْرٌ في مديحه بعضَ عباراته التي ردَّ بها على الطَّاغِيَةِ<sup>(٢)</sup>، وكان زُهَيْرٌ مُولَعًا بالأنُوفِ الأنْفَةِ، وكأنَّ النَّابِغَةَ رأى لهذا الرَّجُلِ، الذي يُمثِّلُ أنْفَةَ العربيِّ العريقِ، حقًّا عليه فجَوَّدَ هذه الأبيات.

قلتُ: إن أبا العبَّاسِ ذَكَرَ هذه الأبياتَ وقَدَّمَ لها بقوله: «ومِن عَجِيبِ التَّشْبِيهِ في إفراطٍ»، والتَّشْبِيهُ فيها خَفِيٌّ جدًّا كما ترى، ولا أراه فيها إلا في شيءٍ واحدٍ، وهو أنَّه لَمَّا قال: «والجِبَالُ جُنُوحٌ»، و«لَمْ تَلْفِظِ المَوْتَى القُبُورُ».. إلى آخرِ ما ذَكَرَ، كان ذلك مُتضمَّنًا تشبِيهَ الجِبَالِ والأَرْضِ والنُّجُومِ وأديمِ السَّمَاءِ بالحَيِّ العَاقِلِ الذي يَعْرِفُ أَقدَارَ الرِّجالِ، وأنَّ قَدَرَ حِصْنٍ، ومَكَانَةَ حِصْنٍ، وحِمَايَةَ حِصْنٍ لقومِهِ مِن طُغيانِ جَاهِلٍ أَحْمَقَ، نَفَذَتْ إلى هذه الكائناتِ، وأنها تَبْكِيه كما يَبْكِيه أهلُهُ وعشيرَتُهُ.

أذْكَرُ بأنَّ أبا العبَّاسِ بَنَى كتابَه - الذي يُقدِّم فيه لُعنًا إلى أجيالنا - على ما جُبِلَتْ النَّفْسُ على حُبِّهِ؛ مِنَ الحِكمِ، والأَمْثالِ، والخُطَبِ الشَّرِيفَةِ، والرِّسائِلِ البليغةِ، والشَّعْرِ المُستَحْسَنِ، وأنَّ هذا هو أيسرُ الطُّرُقِ وأقربُها إلى

(١) ذَكَرَ هذا الخبرَ أبو العبَّاسِ ثَعْلَبٌ في تمهيدِهِ لقصيدَةِ زُهَيْرِ بنِ أَبِي سُلَمَى: «صَحَا القَلْبُ عَن سُلَمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهُ»، يُنظر: ديوان زُهَيْرِ بنِ أَبِي سُلَمَى بِشرحِ أبي العبَّاسِ ثَعْلَبٍ، ص ١٢٤.

(٢) مِن أبياتِ زُهَيْرِ التي اشتملت على عباراتِ حِصْنٍ قوله: [من الطويل]  
أَبَى الضَّيْمَ وَالتَّعْمَانَ يَخْرِقُ نَابَهُ      عَلَيْهِ فَأَفْضَى وَالسُّيُوفُ مَعَاقِلُهُ

ديوان زُهَيْرِ بنِ أَبِي سُلَمَى بِشرحِ أبي العبَّاسِ ثَعْلَبٍ، ص ١٤٣.  
وقوله: «فَأَفْضَى» أي: صَارَ في فُضَاءٍ. يُريد قولَ حِصْنٍ: «وليس لي حِصْنٌ إلا السُّيُوفُ والرِّمَاحُ، وأنا لك بالفَضَاءِ».

النُّفُوسَ، وأنَّ تَقْدِيمَ اللُّغَةِ إِلَى الجِيلِ الجَدِيدِ بالطَّرِيقَةِ الخَشِنَةِ والغامِضَةِ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ انْصِرَافِ الجِيلِ عَنْ لُغَتِهِ، وَالانْصِرَافُ عَنْ اللُّغَةِ مَعْنَاهُ انْصِرَافٌ عَنِ الْقِيَمِ وَالثَّقَافَةِ وَالْحَضَارَةِ؛ لِأَنَّ اللُّغَةَ وَعَاءٌ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَوِعَاءٌ كُلُّ مَا تَحْرُصُ كُلُّ أُمَّةٍ عَاقِلَةٍ عَلَى أَنْ تُسَكِّنَهُ فِي نَفُوسِ أَجْيَالِهَا.

وَتَعَجَّبُ حِينَ تَجِدُ أَنَّ المُولَى - جَلَّ وَتَقَدَّسَ - إِنَّمَا دَعَا خَلْقَهُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ مِنْ خِلَالِ مَا جُبِلَتْ النُّفُوسُ عَلَى حُبِّهِ، وَهُوَ الْفِطْرَةُ، فَكَانَ الدِّينُ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، وَاللُّغَةُ بَشْرَاءٌ مَا تَحْمِلُهُ مِنْ مَعَانٍ وَقِيَمٍ إِنْسَانِيَّةٍ وَتَارِيخِيَّةٍ هِيَ الرِّبَاطُ الْمُتَمَسِّكُ بِأَبْنَاءِ الْأُمَّةِ، وَالْحَرَصُ عَلَى اللُّغَةِ بِهَذَا الْمَفْهُومِ يَعْنِي الْحَرَصَ عَلَى رِبَاطٍ لَا يَزُولُ وَلَا يَحُولُ.

## نُوحُ الْحَمَامِ

وَمِنْ أَبْوَابِ الشَّعْرِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَبُو الْعَبَّاسِ، وَلَهَا فَضْلٌ تَعَلَّقَ بِالطَّبْعِ الْإِنْسَانِيِّ، مَا ذَكَرَهُ فِي نُوحِ الْحَمَامِ وَتَطْرِيهِهِ وَغِنَائِهِ، وَهَذَا الْبَابُ الَّذِي هُوَ نُوحُ الْحَمَامِ وَتَطْرِيهِهِ وَغِنَاؤُهُ لَهُ خُصُوصِيَّةٌ لَا تُوجَدُ لغيرِهِ، وَهِيَ فِعْلُهُ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَعَ خُلُوهِ التَّامِّ مِنْ أَيِّ دَلَالَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ، وَإِنَّمَا هُوَ صَوْتُ مَحْضٌ، وَالْعَجِيبُ أَنَّ الْحَمَامَةَ حِينَ تُذَكَّرُ فِي الشَّعْرِ يَكُونُ لَهَا مَذَاقٌ مُتَمَيِّزٌ، سِوَاكَ كَانَتْ حَمَامَةً تُغْنِي، أَوْ حَمَامَةً عَزَّاهَا شَرَكٌ، أَوْ حَمَامَةً عُلِّقَتْ عَلَى كَبِدِ شَاعِرٍ.. أَوْ مَا شِئْتَ، وَيُدْهِشُكَ هَذَا السَّرُّ الْخَفِيُّ بَيْنَ الْقَطَا وَلَوْ كَانَتْ وَاحِدَةً تَرِدُ شَرِيعَةَ الْمَاءِ، أَوْ كَانَتْ جَمَاعَةً، وَبَيْنَ هَذِهِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

وَقَدْ انْتَقَلَ أَبُو الْعَبَّاسِ مِنْ ذِكْرِ حَنِينِ الْإِبِلِ إِلَى غِنَاءِ الْحَمَامِ، وَحَنِينُ الْإِبِلِ لَهُ ارْتِبَاطٌ بِالشَّعْرِ، حَتَّى إِنَّهُمْ قَالُوا: «لَا تَدْعُ الْعَرَبُ الشَّعَرَ حَتَّى



تَدَعُ الْإِبِلَ الْحَيْنَ»<sup>(١)</sup>، وَالْإِبِلُ لَا تَدَعُ الْحَيْنَ أَبَدًا؛ لِأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ فِطْرَتِهَا، وَالشُّعْرُ جُزْءٌ مِنْ فِطْرَةِ هَذِهِ الْعَرَبِ.

يَقُولُ أَبُو الْعَبَّاسِ: «وَالْبَعِيرُ يَحْنُ أَشَدَّ الْحَيْنِ إِلَى أَلْفِهِ إِذَا أُخِذَ مِنَ الْقَطِيعِ»، ثُمَّ ذَكَرَ قَوْلَ الشَّاعِرِ: [مِنْ الْكَامِلِ]

لَا تَضْبِرُ الْإِبِلَ الْجَلَادُ تَفَرَّقَتْ      بَعْدَ الْجَمِيعِ وَيَضْبِرُ الْإِنْسَانُ

وَقَوْلَ الْآخَرِ: [مِنْ الطَّوِيلِ]

وَهَلْ رِبِيَّةٌ فِي أَنْ تَحْنَنَّ نَحِيْبَةً      إِلَى إِفْهَاءٍ أَوْ أَنْ يَحْنَنَّ نَحِيْبٌ؟

ثُمَّ يَقُولُ: «وَإِذَا رَجَعَتِ الْحَيْنَ كَانَ ذَلِكَ أَحْسَنَ صَوْتٍ يَهْتَاجُ لَهُ الْمُفَارِقُونَ، كَمَا يَهْتَاجُونَ لِنُوحِ الْحَمَامِ وَلِأَلْتِيَاكِ الْبُرُوقِ»<sup>(٢)</sup> انْتَهَى كَلَامُهُ. وَالشُّعْرُ الَّذِي هُوَ تَرْجِيعٌ لِهَذِهِ الثَّلَاثَةِ هُوَ الشُّعْرُ الْخَالِصُ، وَهُوَ مِنْ أَكْرَمِ الشُّعْرِ، وَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ يَدَيِ الْجِيلِ دِيْوَانُ حَيْنِ الْإِبِلِ مَشْرُوحًا، وَدِيْوَانُ غِنَاءِ الْحَمَامِ، وَدِيْوَانُ الصَّبُوءَةِ الَّتِي يُثِيرُهَا لَمَعُ الْبُرُوقِ، وَلَا أَظُنُّ أَنْ طَالِبَ عِلْمٍ يَبْعُدُ عَنْ يَدَيْهِ دِيْوَانٌ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ.

ذَكَرَ أَبُو الْعَبَّاسِ فِي غِنَاءِ الْحَمَامِ قَوْلَ عَوْفِ بْنِ مُحَلَّمٍ: [مِنْ الطَّوِيلِ]

(١) أَوْرَدَهُ ابْنُ رِشْقٍ مَرْوِيًّا عَنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يُنْظَرُ: الْعُمْدَةُ فِي مُحَاسِنِ الشُّعْرِ وَآدَابِهِ وَتَقْدِيرُهُ ٣٠ / ١، وَسَاقَهُ الْغَزَالِيُّ ضَمَنَ حَدِيثِ قِسْمَةِ الْغَنَائِمِ يَوْمَ حُنَيْنٍ، يُنْظَرُ: إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ ٥ / ٤٥٦، وَأَصْلُ الْحَدِيثِ خَالِيًّا مِنْ هَذَا الْقَوْلِ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، كَتَابُ: الزَّكَاةِ، بَابُ: إِعْطَاءِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، حَدِيثٌ رَقْمُ (١٠٦٠).

(٢) الْكَامِلُ ٣ / ٩١ - ٩٢.

أَلَا يَا حَمَامَ الْأَيْكَ إِلْفُكَ حَاضِرٌ      وَغُصْنُكَ مَيَّادُ فَنِيمَ تَنُوحٍ  
أَفِقْ لَا تَنُحْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ فَإِنِّي      بَكَيْتُ زَمَانًا وَالْفُؤَادُ صَحِيحُ  
وَلَوْعًا فَشَطَّتْ غَرْبَةً دَارُ زَيْنَبٍ      فَهِيَ أَنَا أَبْكِي وَالْفُؤَادُ قَرِيحُ<sup>(٣)</sup>

هذا شعرٌ لا يقرؤه قارئٌ إلا أعاد قراءته، ويكاد يقول: «احفظوني»، وفيه رُوح إنسانيةٌ بالغة الرقي، وهي بث المعنى الإنساني فيما تُخاطبه، ثم بعد هذا البث تُقاربُه، ويزدادُ القُربُ بالنُصح وبث الشكوى خلال هذا النُصح، والنفسُ التي تُسقى بهذا وهي خُصراء لا تقبل أن يُدخلها شيطانٌ في دائرة الحقدِ الأسودِ على بني الإنسان، أو على بني الوطن، حتى ترى المذابحَ تدورُ على ترابِ البلاد، وأبناءؤها يذبَحُ بعضهم بعضًا.. هذا شيءٌ وذلك شيءٌ آخر.

وراجعُ قوله: «إِلْفُكَ حَاضِرٌ وَغُصْنُكَ مَيَّادُ فَنِيمَ تَنُوحٍ»، وقوله: «فَشَطَّتْ غَرْبَةً دَارُ زَيْنَبٍ» يعني: ضاعَ الأملُ وذهبَ الحُلم. وأنا لا أفهم «دَارُ زَيْنَبٍ» بالدلالة الحرفية؛ لأن الشعرَ ليس كذلك، وإنما أفهمُ منها أنه شَطَّ ما كان يَرتجى، فقد فتحت آفاقًا من المعاني لا حدودَ لها؛ لأنَّ لكلِّ مِنَّا «زَيْنَبٍ»، ولو كانت «زَيْنَبٍ» واحدةً مُعيَّنة لماتَ الشعرُ يوم ماتت.

وَذَكَرَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَبِياتًا فِي غِنَاءِ الْحَمَامِ لِحُمَيْدِ بْنِ ثَوْرٍ، مِنْهَا: [من الطويل]

تَغَنَّتْ عَلَى غُصْنٍ عِشَاءً فَلَمْ تَدْعُ	لِنَائِحَةٍ فِي نَوْحِهَا مُتَلَوِّمَا
إِذَا حَرَّكَتُهُ الرِّيحُ أَوْ مَالَ مَيْلَةً	تَغَنَّتْ عَلَيْهِ مَائِلًا وَمُقَوِّمَا
عَجِبْتُ لَهَا أَنِّي يَكُونُ غِنَاؤُهَا	فَصِيحًا وَلَمْ تَفْغَرِ بِمَنْطِقِهَا فَمَا
فَلَمْ أَرِ مِثْلِي شَاقَهُ صَوْتُ مِثْلِهَا	وَلَا عَرِيًّا شَاقَهُ صَوْتُ أَعْجَمًا <sup>(١)</sup>

هذا غيرُ الشعرِ الأوَّل؛ لأنه لم يجعل الحَمَامَ من النَّاسِ، وإنَّما أبقاها وتكلَّم عن صَوْتِهِ.. الشَّاعِرُ هناك لآمَهُ عَلَى النَّوْحِ وَالْإِلْفِ حَاضِرٌ وَالْغُصْنُ مَيَّادٌ، وهنا ذكر أنَّ غِنَاءَهَا تَهْتَاجُ لَهُ كُلُّ نَائِحَةٍ.

وِغِنَاءُ الْحَمَامِ وَنَوْحُهُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَالْغِنَاءُ عَلَى الْغُصْنِ الْمَيَّادِ مَعْنَى مُشْتَرَكٍ؛ هناك يقول: «وَعُصْنُكَ مَيَّادٌ» وهنا يقول: «غَنَّتْ عَلَيْهِ مَائِلًا وَمُقَوِّمَا».

وقوله: «عَجِبْتُ لَهَا أَنِّي يَكُونُ غِنَاؤُهَا.. إِلَى آخِرِهِ» هُوَ أَهَمُّ مَا فِي نَوْحِ الْحَمَامِ؛ لِأَنَّهُ وَصَفُ خَالِصٍ لَصَوْتِهِ، وَأَنَّهُ فَصِيحٌ يُبَيِّنُ عَنْ نَفْسِهِ أَتَيْنَ إِبَانَةً وَلَمْ يَفْتَحْ فَمَهُ، وَهَذَا مَوْضِعُ الْعَجَبِ؛ وَلِذَلِكَ كَانَتْ أَبِياتُ حُمَيْدٍ مُخْتَلِفَةً فِي جِهَةِ التَّنَاقُلِ عَنْ أَبِياتِ عَوْفِ بْنِ مُحَلَّمٍ، وَهَذَا الْبَيْتُ الَّذِي عَجِبَ مِنْ فَصَاحَتِهَا وَهِيَ مُطَبِّقَةٌ فَمَهَا وَلَمْ تُحَرِّكْهُ هُوَ الَّذِي فَتَحَ بَابَ الْمَعْنَى لِقَوْلِهِ:

فَلَمْ أَرِ مِثْلِي شَاقَهُ صَوْتُ مِثْلِهَا      وَلَا عَرِيًّا شَاقَهُ صَوْتُ أَعْجَمًا

وهذا مِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي هَذَا الْبَابِ.

وَذَكَرَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَيْبَاتًا قَالُوا: إِنَّهَا لِأَبِي تَمَّامٍ، مِنْهَا: [من الوافر]

وَلَمْ أَفْهَمْ مَعَانِيَهَا وَلَكِنْ      وَرَتْ كَبِدِي فَلَمْ أَجْهَلْ شَجَاهَا  
فَكُنْتُ كَأَنْنِي أَعْمَى مُعْنَى      يُحِبُّ الْغَانِيَاتِ وَمَا يَرَاهَا<sup>(١)</sup>

وهذا من التشبيه النادر، وفيه بيانٌ جيّد؛ لأنه يعني أن هذا الصّوت الذي لم يفهم معانيه أيقظ من مُستكين نفسه ولعًا بشيءٍ كَوَلَعِ الْمُعْنَى بِحُبِّ الْغَانِيَاتِ وَمَا رَاهَا.

وكلُّ هذا صريحٌ في أن الصّوت الذي تسمعه الأذن ولم تعقل منه النّفس شيئاً له هذا الأثر البالغ في النّفس الإنسانية، وهذا كلامُ الشعراء الذين هم صُنَاعُ الْبَيَانِ، وهم أعلمُ بخوافيه، وهذا صريحٌ في أن النّغم والرّنين في الشّعر جزءٌ من الشّعر وله مشاركته التي لا تُنكر في تأثير الشّعر، وكذلك في البيان كلّهُ.

وقد ذَكَرَ أَبُو الْعَبَّاسِ خَبْرًا عَنْ رَجُلٍ صَالِحٍ كَانَ يَسْمَعُ صَوْتَ «الْفَارِسِيَّةِ» تَنُوحُ فَيَبْكِي وَهُوَ لَا يَفْهَمُ مَا تَقُولُ، وَأَنَّ بَعْضَ الْمُحَدِّثِينَ سَمِعَ غِنَاءً بِخُرَاسَانَ بِالْفَارِسِيَّةِ فَلَمْ يَذَرِ مَا هُوَ، غَيْرَ أَنَّهُ شَوَّقَهُ؛ لِشَجَاهِ وَحُسْنِهِ<sup>(٢)</sup>.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا مِنَ الْمَسْكُوتِ عَنْهُ فِي الدَّرْسِ الْبَلَاغِيِّ؛ لِأَنَّا تَعَلَّمْنَا أَنْ نَسْتَخْرِجَ دَلَالَاتِ الْأَلْفَاظِ وَالتَّرَاكِيِبِ، وَضَرَبْنَا صَفْحًا عَنْ أَثَرِ النَّغَمِ وَالرَّنِينِ، وَأُضِيفُ إِلَى هَذَا شَيْئًا؛ هُوَ أَنَّ التَّلَاوْمَ الصَّوْتِيَّ الْمَحْضَ مِنْ

(١) الكامل ٩٢ / ٣ - ٩٣.

(٢) يُنْظَرُ: الكامل ٩٤ / ٣.

غير نظير إلى أي دلالة معنوية تُفهم منه عده العالم النحوي الذي جاء عقيب أبي العباس بلا مُهلة، وهو علي بن عيسى الرُماني، الذي وُلِدَ قبل وفاة أبي العباس بتسع سنين - أقول: عدَّ علي بن عيسى الرُماني التلاؤم الصوتي وجهًا من وجوه الإعجاز، بمعنى أن مَنْ له حسُّ يدرك به جلال الصوت إذا سمع القرآن وهو لا يفهم شيئًا من العربية أدرك أن هذا الذي يسمعه خارقٌ للعادة، وقاطعٌ للأطماع، وقاهرٌ للقوى والقدر، وهذا معنى أنه وجهٌ من وجوه الإعجاز.

وذكر علي بن عيسى أن التلاؤم الصوتي في الشعر يبلغ مداه في مثل قول الشاعر: [من الطويل]

رَمْتَنِي وَسِترُ اللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا      عَشِيَّةَ آرَامِ الْكِنَاسِ رَمِيمٌ  
رَمِيمٌ الَّتِي قَالَتْ لِجِرَانِ بَيْنَهَا      ضَمِنْتُ لَكُمْ أَلَا يَزَالُ يَهِيمُ

وذكر أن المسافة التي بين هذا وبين أبعاد الكلام عن التلاؤم؛ كالذي تسمعه في قول الشاعر: [من الرجز]

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٍ      وَلَيْسَ قُرْبُ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

أبعد منها بين أبيات «رَمِيم» وأي تلاؤم في أي آية في الكتاب العزيز<sup>(١)</sup>.

وهذا كلامٌ جيدٌ جدًا، وقد أشبعه الرَّافِعِيُّ بيانًا<sup>(٢)</sup>، كما أشبعه الدكتور / مُحَمَّد عبد الله دراز، واعتبرَ هذا التَّنْظِيمَ الصوتيَّ أوَّلَ ما يُفاجئُ الأُذُنَ بالإعجاز<sup>(٣)</sup>.

(١) يُنظر: النُّكْت في إعجاز القرآن، ضمن كتاب «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن»، ص ٩٤ - ٩٧.

(٢) يُنظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ١٤٥ - ١٥١.

(٣) يُنظر: النبأ العظيم، ص ١٠١ - ١٠٤.

وهذه الأبيات التي ذكرها عليُّ بن عيسى مثلاً لبُلوغِ الشعرِ الغايةِ في التلاؤمِ الصَّوتيِّ ذَكَرَها أبو العباسِ ولكنْ ليس لهذا الغرض، وإنما هي من المُختارِ الحَسَنِ.

وذكر أبو العباس في سياق ذكر الحَمَام أن الذَّكَر يُقال له: «حمامة»، ويُفَرَّقُ بينه وبين الأنثى باسم الإشارة، فيقال: «هذا حمامة»، وكذلك يُقال: «دجاجة»، للذَّكَر والأنثى، ويُفَرَّقُ بينهما باسم الإشارة، ويُقال: «بَقَرَة» للذَّكَر والأنثى، ويُقال: «بَطَّة» للذَّكَر والأنثى، ويُقال للحمامة: «غَنَّتْ» كما يُقال: «نَاحَتْ»؛ وذلك أن صَوْتَهَا صَوْتُ حَسَنٍ غيرُ مفهوم، فيشَبَّه مرَّةً بالغناء ومرَّةً بالنياحة. وهذا يعني أن «غَنَّتْ الحمامةُ ونَاحَتْ» من المجازِ القائمِ على التَّشبيه.

واسمُ صَوْتِها الحقيقيُّ هو «سَاق حُرٌّ»، يعني حِكَايَةَ الصَّوت؛ قال حُمَيْدُ بْنُ ثَوْرٍ: [من الطويل]

وَمَا هَاجَ هَذَا الشُّوقَ إِلَّا حَمَامَةٌ      دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ تَرْحَةً وَتَرْنَمًا

قال أبو العباس: أمَّا قولُ حُمَيْدٍ: «دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ» فإنَّما حكى صَوْتَهَا<sup>(١)</sup>.

### شَعْرُ الْمُحَدِّثِينَ

كان أبو العباس شديدَ العنايةِ بِشَعْرِ الْمُحَدِّثِينَ، وكان يُعَقِّبُ على كُلِّ بابٍ اختارَ فيه شِعْرًا من شِعْرِ الْقُدَمَاءِ باختيارِ شِعْرِ مِنْ شِعْرِ الْمُحَدِّثِينَ، وكان يرى أن الشَّعْرَ يُستَجَاد لجودته وليس للزَّمن الذي قِيلَ فيه؛ قال

في هذا: «وليس لِقَدَمِ الْعَهْدِ يُفْضَلُ الْقَائِلُ، وَلَا لِحَدَثَانِ عَهْدٍ يُهْتَضَمُ الْمُصِيبُ، وَلَكِنْ يُعْطَى كُلُّ مَا يَسْتَحِقُّ»<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ إِنَّهُ كَانَ يُصَادِقُ شُعْرَاءَ زَمَانِهِ وَيُخَالِطُهُمْ، وَكَانَ الْبُحْتَرِيُّ يَرْفَعُ الْكُلْفَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي الْعَبَّاسِ وَيُدَاعِبُهُ فِي شِعْرِهِ<sup>(٢)</sup>، وَقَدْ مَدَحَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ بِقَصِيدَةٍ زَادَتْ عَلَى التَّسْعِينَ بَيْتًا، وَكَانَتْ فِي دِيْوَانِ ابْنِ الرُّومِيِّ الْمَخْطُوطِ، وَقَدْ نَشَرَهَا الشَّيْخُ عُضَيْمَةُ فِي مَقْدَمَةِ كِتَابِ «الْمُقْتَضَبِ» وَقَالَ: «مِنَ النَّادِرِ أَنْ يَمْدَحَ أَهْلُ الزَّمَانِ نَحْوِيًّا يَعِيشُ بَيْنَهُمْ»<sup>(٣)</sup>، وَكُلُّنَا يَعْلَمُ هِجَاءَ الْبُحْتَرِيِّ لِأَبِي الْعَبَّاسِ ثَعْلَبَ، وَكَذَلِكَ هِجَاءُ ابْنِ الرُّومِيِّ، وَكَانَ قَدْ يَسَّ الثَّرَى بَيْنَ ثَعْلَبَ وَالْمُبَرَّدِ.

(١) الكامل ١ / ٢٨.

(٢) أفاد شيخنا ذلك ممَّا جاء في مقدِّمة الشَّيْخِ عُضَيْمَةُ الَّتِي صَدَّرَ بِهَا تَحْقِيقَهُ كِتَابَ «الْمُقْتَضَبِ».

وَمِمَّا دَاعَبَ فِيهِ الْبُحْتَرِيُّ أَبَا الْعَبَّاسِ فِي شِعْرِهِ قَوْلُهُ: [مِنَ الْخَفِيفِ]

فَأَتْنَا يَا مُحَمَّدَ بْنَ يَزِيدٍ      فِي اسْتِتَارٍ كَيْ لَا يَرَاكَ الرَّقِيبُ

وَمِمَّا مَدَحَهُ فِيهِ قَوْلُهُ: [مِنَ الْكَامِلِ]

مَا نَالَ مَا نَالَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ      إِلَّا بِمَنْ مُحَمَّدَ بْنَ يَزِيدٍ

يُنْظَرُ: مَقْدَمَةُ «الْمُقْتَضَبِ» ١ / ٢٧ - ٢٨، ٤٣.

(٣) عِبَارَةُ الشَّيْخِ عُضَيْمَةُ مَنْقُولَةٌ بِالْمَعْنَى، وَنَصُّهَا: «وَقَلَّمَا ظَفَرَ نَحْوِيٌّ بِقَصِيدَةٍ مَدَحٍ طَوِيلَةٍ كَهَذِهِ

الْقَصِيدَةِ مِنْ شَاعِرٍ كَبِيرٍ مُعَاَصِرٍ لَهُ».

وَقَصِيدَةُ ابْنِ الرُّومِيِّ الْمَذْكُورَةُ مَطْلُوعُهَا: [مِنَ الرَّمْلِ]

طَرَقَتْ أَسْمَاءُ وَالرَّكْبُ هُجُودٌ      وَالْمَطَايَا جُنَحُ الْأَذْوَادِ قُودٌ

وَمِمَّا جَاءَ فِيهَا مِنْ مَدَحِ الْمُبَرَّدِ قَوْلُهُ:

يَا أَبَا الْعَبَّاسِ إِنِّي رَجُلٌ      فِيَّ عَمَّنْ عَانَدَ الْحَقِّ عُنُودٌ

وَيَمِينَا إِنَّكَ الْمَرْءُ الَّذِي      حُبُّهُ عِنْدِي سَوَاءٌ وَالسُّجُودُ

يُنْظَرُ: مَقْدَمَةُ «الْمُقْتَضَبِ» ١ / ٤٤، ٤٧.

وقد ذكرتُ وأكرّرُ أن هَمَّ أبي العباس هو أن ينقلَ الشعرَ بكلِّ ما يَحْمِلُهُ مِنْ حِكْمٍ وَآدَابٍ وَقِيَمٍ وَتَارِيخٍ إِلَى الْجِيلِ الْجَدِيدِ؛ لَأَن هَذَا ضَرُورِيٌّ فِي تَرَابُطِ الْجِيلِ وَبِنَاءِ هُويِّهِ الْحَضَارِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ، وَأَن هَذَا لَيْسَ خَاصًّا بِالْمُتَخَصِّصِينَ؛ لَأَن الْمَعْرِفَةَ بِالْقِيَمِ وَالتَّارِيخِ وَالْحَضَارَةِ مَعْرِفَةٌ وَاجِبَةٌ لِكُلِّ أُنْبَاءِ الْأُمَّةِ، حَتَّى وَلَوْ كَانُوا مُتَخَصِّصِينَ فِي الرِّيَاضِيَّاتِ وَعِلُومِ الطَّبِّ وَعِلُومِ الْهَنْدَسَةِ؛ لَأَن هَذَا يَرْجِعُ إِلَى بِنَاءِ الْإِنْسَانِ بِنَاءً يَتَلَاءَمُ مَعَ مَاهِيَّةِ الْأُمَّةِ.

ولأبي العباس كلمةٌ جيِّدةٌ فِي شِعْرِ الْمُحَدِّثِينَ، وَأَنَّ هَذَا الشَّعْرَ الْحَدِيثَ أَقْرَبُ إِلَى لُغَتِهِمْ، وَهُمْ أَقْدَرُ عَلَى أَن يَتَمَثَّلُوا بِهِ، وَأَقْدَرُ عَلَى أَن يَقْتَسِبُوا مِنْهُ فِي لُغَتِهِمْ وَخِطَابِهِمْ وَخُطْبِهِمْ وَمُكَاتِبَاتِهِمْ؛ قَالَ فِي مَقْدَمَةِ حَدِيثِهِ عَنْ شِعْرِ الْمُحَدِّثِينَ: «هَذِهِ أَشْعَارُ اخْتَرْنَاهَا مِنْ أَشْعَارِ الْمُؤَلِّدِينَ حَكِيمَةً مُسْتَحْسَنَةً، يُحْتَاجُ إِلَيْهَا لِلتَّمَثُّلِ؛ لِأَنَّهَا أَشْكَلُ بِالذَّهْرِ، وَيُسْتَعَارُ مِنْ أَلْفَظِهَا فِي الْمَخَاطَبَاتِ وَالْخُطَبِ وَالْكُتُبِ»<sup>(١)</sup>.

وعَلَيْنَا أَن نَذْكُرَ أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْ أَشْيَاخِ النَّحْوِ، وَأَنَّ كَلَامَ الْمُؤَلِّدِينَ وَالْمُحَدِّثِينَ لَا يُحْتَاجُ بِهِ عِنْدَ النَّحَاةِ، وَلَكِنَّهُ نَظَرٌ إِلَى شِعْرِ الْمُحَدِّثِينَ مِنْ زَاوِيَةِ التَّرْبِيَةِ اللُّغَوِيَّةِ وَالبَيَانِيَّةِ لِلْجِيلِ الْجَدِيدِ، وَقَوْلُهُ: إِنَّ لُغَةَ الْمُحَدِّثِينَ «أَشْكَلُ بِالذَّهْرِ» كَلِمَةٌ نَفِيسَةٌ؛ لِأَن قُوَّةَ شَبَهٍ شِعْرِ الزَّمَانِ بِالزَّمَانِ الَّذِي قِيلَ فِيهِ تَجَعُّلُهُ أَقْرَبَ إِلَى أَن يُحْفَظَ وَيُتَمَثَّلَ بِهِ وَيُتَغَنَّى بِهِ، وَهَذَا مَطْلُوبٌ فِي تَقْوِيمِ الطَّبَاعِ، وَاللُّغَةُ الْأَشْكَلُ بِالذَّهْرِ أَقْرَبُ إِلَى الْأَلْسِنَةِ.



وأبو العباس في هذا يقول لنا: كل زمان له لغته، وخاطبوا الجيل الجديد في علم أمته بلغتكم أنتم التي هي لغة زمانه، والتراث ليس اللغة، وإنما هو المصامين التي تعبر عنها هذه اللغة؛ فانقلوه إلى أجيالكم بلغتكم، وهذا أكثر محافظة عليه؛ لأن لغتكم ستعين الجيل على استيعابه وفهمه وتمثله، والذين يعتقدون أن التراث هو كتب التراث عليهم أن يراجعوا أنفسهم؛ لأن التراث هو ما في هذه الكتب من العلم؛ فاكتبوا هذه المصامين بلغتكم التي هي لغة زمانكم، واذكروا أن الشيوخ الأوائل قالوا: «كتاب سيبويه كتاب جيد ولكنه كتب على شريطة زمانه»، ولهذا كتبه السيرافي وغير السيرافي، ولم يقل أحد: إن السيرافي فرط في التراث؛ لأنه نقل مضمون كتاب سيبويه إلى لغته التي هي لغة الجيل الذي يعلمه.

ولارتباط اللغة بالزمان كتب فقهاؤنا الفقه في كل زمان بلغة هذا الزمان، وهكذا النحاة وغيرهم، ولو كانت الكتب هي التراث لكان هؤلاء جميعاً مضيعين للتراث، وهذا ظاهر، وأنهم رفضوا أن يجعلوا التراث العلمي حبيس كتب كتبت على شريطة زمانها، ورحم الله أبا العباس؛ فقد كان يضع بقوله: «أشكل بالدهر» الهناء مواضع النقب<sup>(١)</sup>، وحركة الحديث

(١) «الهناء»: ضرب من القطران، و«النقب»: جمع «النقبة»، وهي أول ما يبدو من الجرب قطعاً متفرقة. العين (ه ن أ) ومقاييس اللغة (ن ق ب).

وأصله أنه كان إذا جرب البعير تعهد الطالبي جسده كنهه بالقطران حتى ينحسم الداء. ومن ذلك

قول دريد بن الصمة يصف الخنساء وهي تزيأ بغير لها: [من الكامل]

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ      كَأَلْبُومِ طَالِيٍّ أَيْتَقِي جُزْبِ  
مُبْدَلًا تَبْدُو مُحَاسِنُهُ      يَضَعُ الْهِنَاءَ مَوَاضِعَ النَّقْبِ

والقديم حركة دائمة ودائبة؛ فهناك حديثٌ مع كلِّ شروقِ شمسٍ، وهناك قديمٌ مع كلِّ غروبِ شمسٍ، وهذا نظامٌ كونيٌّ لا يستطيع أحدٌ أن يقاومه.

وهذه اللَّفْظَةُ المختصرةُ من أبي العباس في وَصَفِ الحديث، وأَنَّهُ «أَشْكَلُ بِالذَّهْرِ، وَيُسْتَعَارُ مِنَ أَلْفَاظِهِ فِي الْمَخَاطَبَاتِ وَالْخُطَبِ وَالْكُتُبِ» - هذه اللَّفْظَةُ تنطوي على إشارة؛ هي ضرورةُ الدَّرْسِ الجادِّ الذي يُحدِّدُ الفَرْقَ بين القديم والحديث، وعبارَةُ أبي العباسِ خطوةٌ في هذا الباب، وليس هناك زَمَنٌ مُحدَّدٌ يمكن اعتباره قديمًا وزَمَنٌ يمكن اعتباره حديثًا؛ لأنَّ الزَّمانَ غيرُ قارٍّ، وحديثُ اليومِ قديمٌ الغد، ودراسةُ الفُروقِ تعني أنها دراسةٌ مستمرةٌ وترصدُ التَّغْيِيرَ الذي يحدث في الكلام، مع ثبوتِ ثوابتٍ لا تتغيَّر؛ كالنَّظامِ الإعرابي ودلالة الألفاظ، ومع ذلك نجدُ فَرْقًا بين لُغَةِ مُحَمَّدٍ عبده ومُحَمَّدِ الغزالي، هذا فضلًا عن الذي بين العصر الجاهليِّ والعصر العباسيِّ أو العصر الأندلسيِّ.. إلى آخره، وكلُّها أحدثت تغييرًا في الأساليب لم يُدرَسْ بعدُ، فضلًا عن أن يُواكَب.

وعصورُ تطوُّرِ الأساليب ليست هي عصورُ الأدب، وإنَّما يُوضَعُ لها ضابطٌ آخر، الأصلُ فيه هو حدوثُ التَّغْيِيرِ، وقد سبقَ ذِكرُ كلماتٍ لأبي العباسِ وبشارِ بن بُرْدٍ في الفَرْقِ بين لُغَةِ المُولَّدين ولُغَةِ الأعرابِ الخُلَّص، وهذا كلُّه من المسكوت عنه.

---

=وقد تُجَوِّزُ في استعمالِهِ فَصَارَ يُضْرَبُ مَثَلًا لِكُلِّ مَنْ يَضَعُ الشَّيْءَ مَوْضِعَهُ، يُنْظَرُ: جمهرة

كان أبو العباس يهتم بالصورة التي يأخذها شاعرٌ عن شاعرٍ ثم يُضيف إليها شيئاً؛ ذكرَ أبياتَ أبي العتاهية في مدح هارون الرشيد، التي منها: [من الوافر]

أَمِينَ اللَّهِ أَمْنُكَ خَيْرُ أَمْنٍ      عَلَيْكَ مِنَ التَّقَى فِيهِ لِبَاسٌ  
تَسَاسُ مِنَ السَّمَاءِ بِكُلِّ فَضْلٍ      وَأَنْتَ بِهِ تَسْوُسُ كَمَا تَسَاسُ  
كَانَ الْخَلْقَ رُكَّبَ فِيهِ رُوحٌ      لَهُ جَسَدٌ وَأَنْتَ عَلَيْهِ رَأْسٌ<sup>(١)</sup>

وكلمة «أَمِينَ اللَّهِ» كلمةٌ جليلةٌ ومُنجيةٌ، لو فَطِنَ إليها مَنْ يُؤَلِّيه اللهُ أمراً؛ لأن معناها أن الله جعله أميناً على خلقه؛ فلا يظلم، ولا ينهب، ولا يقتل، ولا يخون، ولا يفجر في اليمين، وإنما يحرص على أن يكون أميناً كما جعله الله أميناً. ومعنى «تَسْوُسُ مِنَ السَّمَاءِ» أنك تقضي في الناس بقضاء الله، وتسوسهم على وجهٍ من السياسة الشرعية التي كلها برٌّ. ومعنى «وَأَنْتَ بِهِ تَسْوُسُ كَمَا تَسَاسُ» أنك تطبق على نفسك ما تطالب الناس به؛ فإذا كنت تسوس الناس نحو أمرٍ بدأت بسياسة نفسك، فأنت تساس كما تسوس، لا فرق بينك وبين الناس.

والمهم البيت الثالث، وهو صورةٌ خياليةٌ محضةٌ تُخيلُ الخلقَ كلَّ الخلقِ رُكَّبَ فيه كله رُوحٌ واحدة، لها جسدٌ واحد، ورأسٌ هذا الجسدِ هو أميرُ المؤمنين؛ فهو رأسهم الذي يُدبر ويُفكر.

(١) الكامل ٣/ ١١٠. وقوله: «تَسَاسُ مِنَ السَّمَاءِ» أثبتته شيخنا: «تَسْوُسُ مِنَ السَّمَاءِ»، ووجهه على ذلك. وما في «الكامل» يُوافق ما في ديوان أبي العتاهية، ص ٢٣٣، وما في طبعة «الكامل» بتحقيق الدكتور محمد الدالي ٢/ ١٠٥٣.

وهذه الصورة رَاقَتْ عَلَيَّ بنَ جَبَلَةَ فأخذها في مَدِيحِهِ حُمَيْدٌ بنَ عبد الحميد؛ قال أبو العباس: وزاد في الشَّرح والترتيب فقال: [من السريع]

يَرْتُقُ مَا يَفْتُقُ أَغْدَاؤُهُ      وَلَيْسَ يَأْسُو فَتَقَهُ آسِي  
فَالنَّاسُ جِسْمٌ وَإِمَامُ الْهُدَى      رَأْسٌ وَأَنْتَ الْعَيْنُ فِي الرَّاسِ<sup>(١)</sup>

المعنى مُختلف؛ أبو العتاهية يتكلَّم في سياسة البرِّ، وعليُّ بن جَبَلَةَ يتكلَّم في الفتق والرَّتق والأعداء والحرب، ويبدو أنَّ عليًّا كان في البيت الأول ذا طُربةٍ ظَهَرَتْ في هذه الغِنائية والجناس الذي بين «يَرْتُقُ وَيَفْتُقُ»، وهو جناسٌ لَاحِقٌ، كما يظهر في الجناس الذي لَحِقَ بهذا في الشطر الثاني، والذي بين «يَأْسُو وآسِي»، ثمَّ إنه اختصر صورة أبي العتاهية اختصاراً شديداً، وبدلَ كلمة «كَأَنَّ» التي جعلت الصورة الخيالية في حَيِّزِ القبول هَجَمَ عليُّ على هذا المعنى وقال: «فَالنَّاسُ جِسْمٌ وَإِمَامُ الْهُدَى رَأْسٌ»؛ وذلك لِیُضِيفَ ما زاده هو، وهو قوله: «وَأَنْتَ الْعَيْنُ فِي الرَّاسِ»، وكان هذا ضرورياً؛ لأنه لا يُقال: «رَأْسٌ» إلا للرئيس القوم، فما كان لـ«عليٍّ» أن يقول لـ«حُمَيْدٍ»: «إِنَّكَ رَأْسُ النَّاسِ»، وإنما جَعَلَهُ عَيْنًا في الرأس، يَحْرُسُ بها إِمَامُ الْهُدَى مُلْكَهُ.

ولا أَجِدُ نُصْحًا أَنْصَحُ بِهِ طَلَّابِ عِلْمِ الْبَيَانِ والباحثين في هذا الحَقْلِ الشَّرِيفِ؛ مِنْ أَسَاتِذَةٍ وَمَنْ هُمْ دُونَهُمْ؛ لا أَجِدُ نُصْحًا لَهُمْ أَوْلَى مِنْ الْبَحْثِ الْجَادِّ عَنْ هَذَا اللَّوْنِ مِنْ صَنْعَةِ الشَّعْرِ، التي يَنْظُرُ فِيهَا الشَّاعِرُ إِلَى صَنْعَةِ شَاعِرٍ فَتَرَوْقُهُ ويريد أن تكونَ في شعره، فيجتهدُ في أن يُضِيفَ

❖ ﴿١٠﴾ ❖ ————— ﴿الْمُسْتَكُونُ عَيْنِي وَكَانَ الْبَكَاءُ لِلْبَيْتِ﴾ ❖

شيئاً أو أن يُعَدَّلَ شيئاً أو أن يَحْذِفَ شيئاً، المُهِمُّ أن يُحْدِثَ هو صَنْعَةٌ في هذه الصَّنْعَةِ، فيكونُ الدَّارِسُ بين صَنْعَتَيْنِ لشاعرين، اخترعَ أولُهما صُورَةً وأبدَعَهَا، وجاءَ الثَّاني وراقَتَه هذه الصُّورَةُ فَضَمَّ مجهوداً من صَنْعَتِهِ الشُّعْرِيَّةِ إلى مجهودِ هذا الذي ابتكر، حتى تُنسَبَ الصُّورَةُ إليه بما فَعَلَهُ وصَنَعَهُ وأضافه.

ولاحِظْ أنَّكَ واجِدٌ قَريباً من هذا في المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ في الكتاب العزيز، وكيف كان للسياق أثره في إضافة لفظة، أو حذف لفظة، أو تقديم أو تأخير، أو تعريف أو تنكير، واستخراج ذلك من أغمض العلم وأمنعه وأمنعه أيضاً.

### المبرد وأبو نواس

كان أبو العباس شديد العناية بالحسن بن هاني، وكان كثيراً ما يضع شعره بإزاء شعر القدماء، والحسن جديرٌ بهذه العناية، ولو لم يكن صدر المحدثين فلا يجوز لأحد أن يُبعده عن الطبقة التي هي في الصدر من أمثال البُحْثَرِيِّ، وكأنَّه كان يعلم أنه شاعرٌ يفرض على الناس أن يذكروه؛ لَتَفَوْقِ شِعْرِهِ، ولأنَّه كان يستفزُّ الناس في كثيرٍ من شِعْرِهِ، وكان عالماً بالقراءات، وقد قال الشافعي: «هَمَمْتُ بِأَنْ أَخَذَ الْقِرَاءَاتِ عَنِ الْحَسَنِ ابْنِ هَانِي لَوْلَا مَا عُرِفَ بِهِ»<sup>(١)</sup>، والشافعي عالمٌ جليلٌ مُحْتَاطٌ في عبارته؛ فقال: «ما عُرِفَ بِهِ»، حقاً كان هذا الذي عُرِفَ بِهِ أو باطلاً.

---

(١) لم أقف عليه في كُتُبِ الشَّافِعِيِّ، ولم يُلَخَّ لي في كُتُبِ القدماء، وهو في: الوسيلة الأدبية ١ / ٧٣، والأعلام للزركلي ٢ / ٢٢٥، وعبارته: «لولا مُجُونُ أَبِي نُوَّاسٍ لَأَخَذْتُ عَنْهُ الْعِلْمَ».

وقد ذكر له أبو العباس كثيراً من الشعر الذي وصف به الخمر، ولم يتورع أبو العباس عن ذكر ما يستجاد مهما كان الرأي فيه، وهذا جيد جداً ويروقني؛ أحب الكلمة العالية ولو من فم شيطان؛ لأن الذي يعينني هو علو الكلمة وليس قائلها، ولا يغضبك هذا مني؛ فقد أنزل الله لنا في كتابه الذي يتعبدنا به، ويخرجنا به من الظلمات إلى النور كلاماً كثيراً ليس من فم الشيطان الأكبر الذي وسوس لأبينا آدم، وإنما من أفواه أتباعه من شياطين الإنس الذين أساءوا الأدب مع أنبياء الله، ووصفوهم بأنهم كذبة أو سحرة أو ما شئت، ثم ردّهم كلام الذي خلقهم، وقولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، ووصفهم كلامه - سبحانه - بأنه أساطير.. إلى آخره، لم يخجّب ربنا عنا شيئاً من ذلك، وإنما جعله قرآناً يتعبد به، ثم تُنكر عليّ أن أقرأ وأن أبحث عن الكلمة العالية ولو كانت من فم شيطان! راجع كلام أبي العباس وكيف كان يُفتش في فم عمران ابن حطان عن الكلمة العالية، وأنا أكره عمران بن حطان، وكأنّه يعيش معي، وكأنّه قاتل أبي؛ لأنّ عمران هذا مدح عبد الرحمن بن ملجم قاتل سيّدنا عليّ - كرم الله وجهه -، وأحسب أن تراب الأرض يكرهه، وأن قبره الذي هو فيه كاره له، وكل هذا شيء والكلمة العالية التي أخرجها لسانه شيء آخر، وكأن الله سبحانه وتعالى يقول لنا: ابحثوا عن الخير في كلّ جهة، حتّى في جهات الشر؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق إنساناً هو شرّ محض، ولم أجد في صدري حرجاً وأنا أقرأ قول ضابئ بن الحارث البرجميّ الذي حبسه سيّدنا عثمان؛ لأن لسانه طال أعراض الناس،

فَهُمْ ضَابِئٌ بِقَتْلِ عُثْمَانَ قَبْلَ زَمَنِ الْفِتْنَةِ، وَأَنَا أَحِبُّ عُثْمَانَ كَحُبِّي لَعَلِّي،  
وَعُثْمَانُ ذُو النُّورَيْنِ؛ فَقَالَ ضَابِئٌ: [مِن الطَّوِيلِ]

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي حَلَالِئِلُهُ<sup>(١)</sup>

وهذا مِن أَوْجَزِ الْكَلَامِ وَأَعْلَاهُ، وَيُعْبَرُ عَنْ أَسْوَأِ هَمٍّ وَأَدْنَاهُ، وَلَكِنْ  
سُلْطَانُ الْبَيَانِ عَلَى النَّفْسِ يَجْعَلُكَ تَحْفَظُ: «وَلَيْتَنِي تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ  
تَبْكِي حَلَالِئِلُهُ». وَمِنْ حَلَالِئِلِهِ بِنْتُ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا أَجِدُ فِي ذَلِكَ  
حَرَجًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى يُثَبِّتُنِي أَجْزَلَ الثَّوَابِ وَأَنَا أَقْرَأُ: ﴿إِنْ  
هَذَا إِلَّا لَأَفْكَ أَفْتَرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، و﴿أَسْطِيطُ  
الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا﴾ [الفرقان: ٥]، و﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا  
مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠]، و﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ  
وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].. إِلَى آخِرِ مَا عَلَّمَنَا رَبُّنَا بِهِ أَنْ نَقْرَأَ  
كُلَّ مَا يُقَالُ وَنَحْنُ وَاثِقُونَ بِأَنْ يَقِينَنَا فِي دِينِنَا لَا يَتَزَعَّزِعُ، وَكَمَا قَالَ الْأَوَّلُ:  
«يَقِينِي فِي اللَّهِ يَقِينِي». الْقُرْآنُ يَقُولُ لَنَا: لَا تَطْرُدُوا وَتُطَارِدُوا مَوْلَفَاتٍ مَنْ  
غَاظَبُوكُمْ، وَافْتَحُوا أَبْوَابَ الْمَعْرِفَةِ تُصَفِّقُهَا الرِّيحُ مِنْ هُنَا وَهَنَّا<sup>(٢)</sup>، وَهَذَا  
شَأْنُ الْأَقْوِيَاءِ.

(١) الْبَيْتُ فِي الشُّعْرِ وَالشُّعْرَاءِ ١ / ٣٥١، وَالْكَامِلُ ١ / ٣٠٤، وَالْأَوَائِلُ، ص ٣٢١.

(٢) «هَنَّا»: اسْمُ إِشَارَةٍ لِلْمَكَانِ الْبَعِيدِ، يُنْظَرُ: أَوْضَحُ الْمَسَالِكِ إِلَى أَلْفِيَةِ ابْنِ مَالِكٍ ١ / ١٣٧، وَمِنْهُ

قَوْلُ أَبِي وَجْزَةَ السَّعْدِيِّ: [مِن الْوَافِرِ]

أَتَاكَ الْمَجْدُ مِنْ هُنَا وَهَنَّا وَأَنْتَ لَهُ بِمُجْتَمَعِ السُّيُولِ

ديوان المعاني ١ / ١٠٠، وَهُوَ فِي دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ، ص ٥٠٣، وَرَوَاتُهُ: «وَكُنْتَ لَهُ».

شيء آخر في شعر الحسن بن هانئ لا يُعَدُّ أن يكون خطراً لأبي العباس، وهو أن شعر الحسن يظهر فيه الفرق الواضح بين الشعر القديم وشعر المحدثين، وأنتك بعد تحليله ستجد المنطقة التي تسرب إليها التغيير والتطوير، وتسَلَلت إليها حادثة الشعر، مع أن هذه المنطقة مُحَصَّنَةٌ بحُصُونٍ قويَّةٍ ثابتةٍ راسخةٍ لا تهاوُنَ في شيءٍ منها ألبتة، وهي: الإعرابُ الثَّابِت، ودلالةُ الكلماتِ الثابتة، وطرائقُ الإبانة التي هي الطاقةُ التعبيريَّةُ لِلُّغَةِ مِنْ تعريفٍ وتنكيرٍ، وحذفٍ وذكرٍ.. إلى آخره. الحسن شعره مُلتزِمٌ بكل هذه الثوابت، ثمَّ ظهرت فيه الحادثة التي هي «أشكُلُ بالدَّهر»، كما قال أبو العباس.

أكتفي هنا بما اختاره أبو العباس من شعر الحسن في وصف السفينة، وذلك قوله: [من الكامل]

بُنِيَتْ عَلَى قَدَرٍ وَلَا مَ بَيْنَهَا	طَبَقَانِ مِنْ قَيْرٍ وَمِنْ أَلْوَحِ
فَكَانَتْهَا وَالْمَاءُ يَنْطَحُ صَدْرَهَا	وَالْخَيْزُرَانَةُ فِي يَدِ الْمَلَّاحِ
جَوْنٌ مِنَ الْعِقْبَانِ يَبْتَدِرُ الدُّجَى	يَهْوِي بِصَوْتٍ وَاضْطِفَاقٍ جَنَاحِ <sup>(١)</sup>

تحليلي السريع لمثل هذا الشعر هو محاولة لبيان الحُسن الذي جعل أبا العباس يختاره.. والبيت الأول في هذه الأبيات الثلاثة ليس فيه صنعة، ولم يشأ الشاعر أن يجعل فيه صنعة؛ لأنه وصف لصناعة السفينة وهي على البر، وهذا ليس الذي قصد إليه الشاعر، وإنما قصد إلى وصفها وهي في اليم والماء ينطح صدرها.



وكلمة «بُنِيَتْ عَلَى قَدَرٍ» تعني أنها بُنِيَتْ عَلَى تَقْدِيرٍ. والقِيرُ، بكسر القاف، هو القَارُّ، وهو طِلاءٌ أَسْوَدُ تُطْلَى بِهِ السَّفْنُ حَتَّى لَا يَدْخُلَهَا الْمَاءُ، وَتُطْلَى بِهِ الْإِبِلُ الْجَرْبَى أَيْضًا<sup>(١)</sup>، وَالسَّفِينَةُ لَيْسَتْ قَارًّا وَالْوَحَا؛ لِأَنَّ الْقَارَّ لَا يُمَسِّكُ الْأَلْوَحَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَإِنَّمَا هِيَ الْأَوَاحُ وَدُسُرٌ، كَمَا جَاءَ وَصْفُهَا فِي سُورَةِ «الْقَمَرِ»، وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْوَصْفُ الْمُجْمَلُ لِلْسَّفِينَةِ فِي سُورَةِ «الْقَمَرِ» عَقِبَ آيَةِ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ أَوْسَعُ مِنْهَا فِي بَيَانِ الطُّوفَانِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَفَنَحْنَا أَنْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْنَقَى الْمَاءَ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ﴾ [الْقَمَر: ١١ - ١٢]، ثُمَّ جَاءَ: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسُرٍ﴾ [الْقَمَر: ١٣] فِي وَسْطِ هَذَا الطُّوفَانِ. وَكَيْفَ تَحْمِلُ الْأَلْوَحَ وَالْدُسُرُ الْآبَاءَ الْأَوَّلَ لِكُلِّ مَنْ عَلَى الْأَرْضِ؛ مِنْ إِنْسَانٍ، وَحَيَوَانَ، وَطَيْرٍ.. إِلَى آخِرِهِ؟! كَيْفَ يُحْمَلُ كُلُّ هَذَا عَلَى الْأَوَاحِ وَدُسُرٍ؟! الْجَوَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا﴾ [الْقَمَر: ١٤]، وَمَا دَامَتْ تَجْرِي بِعَيْنِ اللَّهِ فَلَا أَمَانَ لَهَا أَكْرَمَ وَأَبْرَّ وَأَفْضَلَ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ.

الْحَسَنُ لَمْ يَكُنْ مَنَزْعُهُ أَنْ يُحَدِّثَ عَنْ قُوَّةِ السَّفِينَةِ أَوْ ضَعْفِهَا، وَإِنَّمَا مَنَزْعُهُ فِي أَنْ يَرَاهَا فِي الْيَمِّ وَالْمَاءُ يَنْطَحُ صَدْرَهَا، وَرَاجِعُ هَذَا الْبَيْتِ: فَكَانَتْهَا وَالْمَاءُ يَنْطَحُ صَدْرَهَا وَالْخَيْزُرَانَةُ فِي يَدِ الْمَلَّاحِ

تَجِدُ الْجُمْلَتَيْنِ الْحَالِيَتَيْنِ تَعْتَرِضَانِ بَيْنَ اسْمِ «كَأَنَّ» وَخَبَرِهَا، ثُمَّ تَجِدُ أَنَّ الْمَعْنَى كُلُّهُ مَعْقُودٌ فِي هَاتَيْنِ الْجُمْلَتَيْنِ؛ لِأَنَّ الْبَيْتَ الثَّلَاثَ مُشَبَّهٌ بِهِ، يَعْنِي هُوَ بَيَانٌ لِهَذَا الْمَعْنَى، وَتَصْوِيرٌ لَهُ، وَنَقْلٌ لَهُ مِنْ صُورَةِ السَّفِينَةِ وَالْحَالِ أَنَّ الْمَاءَ يَنْطَحُ صَدْرَهَا، وَالْحَالُ أَيْضًا أَنَّ الْخَيْزُرَانَةَ فِي يَدِ الْمَلَّاحِ - إِلَى صُورَةِ الْجَوْنِ الَّذِي ذَكَرَ الشَّاعِرُ حَالَهُ فِي الْبَيْتِ الثَّلَاثِ.

ثم تلاحظُ أَنَّ حَدْوَ الكلامِ يُذَكِّرُكَ بِحَدْوِ كلامِ النَّابِغَةِ: «فَكَيْفَ بِحِصْنِ  
وَالْجِبَالِ جُنُوحُ، وَلَمْ تَلْفِظِ الْمَوْتَى الْقُبُورَ»، ونَسَقِ كُلَّ مَعَانِيهِ فِي جُمْلَةٍ  
حَالِيَّةٍ، ثم إِنَّهُ هُنَا زَادَ شَيْئًا وَهُوَ تَقْدِيمُ هَاتَيْنِ الْجُمْلَتَيْنِ، وَإِقْحَامُهُمَا  
بَيْنَ اسْمِ «كَأَنَّ» وَخَبَرِهَا، وَكَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَ: «كَأَنَّهَا جُونُ صِفَتُهُ كَذَا،  
وَالْمَاءُ يَنْطَحُ صَدْرَهَا»، وَإِنَّمَا قَدَّمَ لِلإِشْعَارِ بِمَزِيدٍ مِنَ الْعِنَايَةِ بِمَا قَدَّمَهُ؛  
لأنَّ كَلِمَةَ «يَنْطَحُ» تَعْنِي غَضَبًا عَارِمًا مِنَ الْمَوْجِ، وَكَأَنَّهُ صَارَ حَيًّا حَاقِدًا  
عَلَيْهَا يُرِيدُ هَلَاكَهَا، وَكَأَنَّ الْمَلَّاحَ اسْتَشْعَرَ هَذَا الْخَطَرَ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَوْجِ  
فَقَامَ يُمَسِّكُ بِالْخَيْرِزَانَةِ الْقَوِيَّةِ اللَّيْنَةِ، الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِهَا قِلَاعُ السَّفِينَةِ؛ لِيَضْبُطَ  
الْمَلَّاحُ اتِّجَاهَ السَّفِينَةِ؛ لِأَنَّ الرِّيحَ تُوشِكُ أَنْ تَذْهَبَ بِهَا إِلَى حَيْثُ تَشَاءُ  
الرِّيحُ، وَلَيْسَ إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ الْمَلَّاحُ.

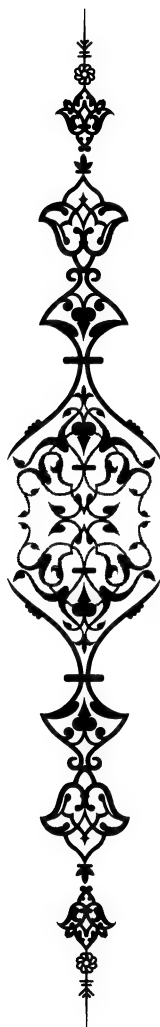
وَكَلِمَةُ «الْجُونُ» تَعْنِي الْأَبْيَضَ وَالْأَسْوَدَ، وَالْمُرَادُ هُنَا: الْأَبْيَضُ؛ لِأَنَّ  
السُّفْنَ لَيْسَتْ سُودَاءَ.

وَكَلِمَةُ «يَتَدَرُّ الدُّجَى» كَلِمَةٌ جَيِّدَةٌ؛ لِأَنَّهُ قَابِلٌ بِهَا قَوْلُهُ فِي الْمُسَبِّهِ «يَنْطَحُ  
صَدْرَهَا»؛ فَقَابَلَ هَذَا الْفِعْلَ النَّشِطَ الْمُتَجَدِّدَ الْغَضُوبَ الَّذِي تَرَاهُ فِي كَلِمَةِ  
«يَنْطَحُ» بِالْإِبْتِدَارِ الَّذِي هُوَ الْعَمَلُ الدَّوُّوبُ النَّشِطُ بِدَارًا أَنْ يُلْحَقَهُ اللَّيْلُ.

وَكَلِمَةُ «يَهْوِي بِصَوْتٍ وَاضْطِفَاقٍ جَنَاحَ» تَمَّ بِهِ التَّشْبِيهُ، أَمَّا الصَّوْتُ  
فَهُوَ صَخَبُ الْمَوْجِ وَهُوَ يَنْطَحُ صَدْرَهَا، وَأَمَّا اضْطِفَاقُ الْجَنَاحِ فَهُوَ خَفَقُ  
الرِّيحِ لِقِلَاعِهَا، وَمُحَاوَلَةُ الْمَلَّاحِ ضَبْطَ هَذِهِ الْقِلَاعِ.

.. هَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ.





## المصادر والمراجع

- ١- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المنهاج، ط: ٢، ١٤٣٤هـ = ٢٠١٣م.
- ٢- أخبار النحويين البصريين، أبو سعيد السيرافي، ت: طه الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، د. ت.
- ٣- أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، مطبعة المدني، ط: ١، ١٤١٢هـ = ١٩٩١م.
- ٤- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، ط: ٩، ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م.
- ٥- إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيّب الباقلاني، ت: السيد صقر، دار المعارف، ط: ٥، ١٩٩٧م.
- ٦- الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط: ١٥، ٢٠٠٢م.
- ٧- الأنوار ومحاسن الأشعار، أبو الحسن علي بن محمد العدوي، المعروف بـ«الشَّمْشَاطِي»، ت: السيد محمد يوسف، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٩٩هـ = ١٩٨٧م.

٨- الأوائل، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سَهْل العسكري، ت: محمد السيد الوكيل، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، ط: ١، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م.

٩- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية- بيروت، د. ط، د. ت.

١٠- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط: ٧، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.

١١- تلخيص المفتاح، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ط: ١، ١٩٠٤م.

١٢- المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، أبو الفرج المُعَاوِيَا ابن زكريا النهرواني الجريري، ت: إحسان عَبَّاس، عالم الكتب - بيروت، ط: ١، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

١٣- جمهرة الأمثال، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سَهْل العسكري، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الفكر، ط: ٢، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

١٤- جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، ت: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، ط: ١، ١٩٨٧م.

١٥- حاشية الشَّهاب، المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، شهاب الدين الخفاجي، دار صادر، د. ط، د. ت.

١٦- حماسة الخالديين: الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، الخالديان أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم، ت: السيد محمد يوسف، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

١٧- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، ت: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ط: ٢، ١٣٧١هـ = ١٩٥٢م.

١٨- الدرُّ المصُون في علوم الكتاب المكنون، السَّمين الحلبي، ت: أحمد الخراط، دار القلم - دمشق، د. ط، د. ت.

١٩- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، قرأه وعلّق عليه: محمود شاكر، مطبعة المدني، ط: ٣، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.

٢٠- ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

٢١- ديوان الشَّمَاخ بن ضِرار الدُّبياني، ت: صلاح الدين الهادي، دار المعارف، د. ط، د. ت.

٢٢- ديوان المعاني، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سَهْل العسكري، ت: النبوي شعلان، مؤسسة العليا للنشر والتوزيع، ط: ١، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.

٢٣- ديوان النَّابغة الدُّبياني، جمع وتحقيق وشرح الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، د. ط، د. ت.

٢٤- ديوان امرئ القيس، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط: ٣، ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م.

٢٥- ديوان دُرَيْد بن الصَّمَّة، ت: عمر عبد الرسول، دار المعارف، د. ط، د. ت.

٢٦- ديوان زهير بن أبي سُلمى بشرح ثعلب، صنعة الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، مركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق المصرية، ط: ٣، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م.

٢٧- ديوان صَفِيّ الدين الحَلِّي، دار صادر، د. ط، د. ت.

٢٨- رسالة الغفران، أبو العلاء المعري، ت: عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، ط: ٨، د. ت.

٢٩- سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني، ت: مجموعة من الأساتذة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط: ١، ١٣٧٤هـ = ١٩٥٤م.

٣٠- شرح ديوان امرئ القيس، الأعلام الشَّتَمَرِيّ، ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م.

٣١- شرح مفتاح العلوم، سعد الدين مسعود بن عمر التَّفْتَازَانِيّ، تحقيق: عَجَّاج بُرْغُش، دار التقوى (دمشق الشام)، الطبعة الأولى، ١٤٤٣هـ = ٢٠٢٢م.

٣٢- شعر الخوارج، جمع وتقديم: إحسان عباس، دار الثقافة - بيروت، ط: ٢، ١٩٧٤م.

٣٣- الشَّعْر والشُّعْرَاء، أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ مُسْلِمٍ بْنِ قُتَيْبَةَ، ت: أَحْمَدُ مُحَمَّدُ شَاكِرٌ، دَارُ الْمَعَارِفِ، ط: ٢، د. ت.

٣٤- الصَّحَاح: تَاجُ اللُّغَةِ وَصِحَاحُ الْعَرَبِيَّةِ، أَبُو نَصْرِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ حَمَّادِ الْجَوْهَرِيِّ، ت: أَحْمَدُ عَطَّارٌ، دَارُ الْعِلْمِ لِلْمَلَايِينِ، ط: ٢، ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م.

٣٥- صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ، مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيُّ، ت: مُحَمَّدُ زَهِيرُ ابْنِ نَاصِرٍ، دَارُ طُوقِ النِّجَاةِ، ط: ١، ١٤٢٢ هـ

٣٦- صَحِيحُ مُسْلِمٍ، أَبُو الْحُسَيْنِ مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ، ت: مُحَمَّدُ فُؤَادُ عَبْدِ الْبَاقِيِّ، دَارُ إِحْيَاءِ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ (عَيْسَى الْبَابِي الْحَلَبِيُّ وَشُرَكَاهُ)، ط: ١، ١٤١٢ هـ = ١٩٩١ م.

٣٧- طَبَقَاتُ فُحُولِ الشُّعْرَاءِ، مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ الْجُمَحِيُّ، ت: مُحَمَّدُ شَاكِرٌ، دَارُ الْمَدَنِ - جَدَّة.

٣٨- الْعَمْدَةُ فِي مَحَاسِنِ الشُّعْرِ وَآدَابِهِ وَنَقْدِهِ، ت: مُحَمَّدُ مَحْيِي الدِّينِ عَبْدِ الْحَمِيدِ، دَارُ الْجِيلِ - بَيْرُوتَ، ط: ٥، ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م.

٣٩- الْعَيْنُ، أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِي، ت: مُهْدِي الْمَخْزُومِي وَإِبْرَاهِيمُ السَّامِرَائِيُّ، دَارُ وَمَكْتَبَةُ الْهَلَالِ، د. ط. د. ت.

٤٠- غَرِيبُ الْحَدِيثِ، أَبُو سَلِيمَانَ حَمْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْخَطَّابِيُّ الْبُسْتِيُّ، ت: عَبْدُ الْكَرِيمِ الْعَزْبَاوِيُّ، مَعْهَدُ الْبَحْثِ الْعِلْمِيَّةِ بِجَامِعَةِ أُمِّ الْقُرَى، ط: ٢، ١٤٢٢ هـ = ٢٠٠١ م.



٤١- الكامل في التاريخ، عز الدين ابن الأثير، ت: عمر تَدْمُري، دار الكتاب العربي - بيروت، ٢٠١٢م.

٤٢- الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس محمد بن يزيد المُبرِّد، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط: ٣، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

٤٣- الكامل، أبو العباس محمد بن يزيد المُبرِّد، تحقيق: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

٤٤- اللُّبَاب في علوم الكتاب، ابن عادل الدمشقي، ت: مجموعة من المحققين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: ١، ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م.

٤٥- لسان العرب، جمال الدين ابن منظور الإفريقي، دار المعارف، د.ط، د.ت.

٤٦- المحكم والمحيط الأعظم، علي بن إسماعيل بن سِيدَه، ت: مجموعة من المحققين، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ط: ١، ١٣٧٧هـ = ١٩٥٨م.

٤٧- مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، محمد محمد أبو موسى، ص ١٠٦، مكتبة وهبة، ط: ٢، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م.

٤٨- مسند الإمام أحمد، أحمد بن محمد بن حنبل الشَّيبَانِي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة.

٤٩- مُعْجَمُ الْبُلْدَانِ، ياقوت الحَمَوِيُّ، دار صادر- بيروت،  
١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م.

٥٠- مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السَّكَّاكِي، مطبعة  
مصطفى البابي الحلبي، ط: ١، ١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م.

٥١- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، ت: عبد السلام هارون،  
دار الفكر، د. ط، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.

٥٢- الْمُقْتَضَب، أبو العباس محمد بن يزيد المُبَرِّد، ت: محمد عبد  
الخالق عزيمة، لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية-  
القاهرة، ط: ٣، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.

٥٣- مُقَدِّمَةُ ابْنِ خَلْدُون، عبد الرحمن بن خلدون، ت: خليل شحادة،  
دار الفكر، ط: ١، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.

٥٤- من التُّرَاثِ النَّقْدِيِّ: دراسةٌ وتحليلٌ، محمد محمد أبو موسى،  
مكتبة وهبة، ط: ١، ١٤٤١هـ = ٢٠٢٠م.

٥٥- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، أبو القاسم الحسن بن بشر  
الأمدي، ت: السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط: ٤، د.ت.

٥٦- النَّبَأُ الْعَظِيمُ: نظرات جديدة في القرآن، محمد عبد الله دراز، دار  
الثقافة - الدوحة، ط: ١، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

٥٧- النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ فِي مَلُوكِ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ، يوسف بن تَغْرِي بَرْدِي،  
دار الكتب العلمية - بيروت، ط: ١، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.

◆ ﴿الْمُسْتَكُونُ عَيْنُهُمْ كَمَا إِنْ كَانَ الْمَلَأُ لِلْبَيْتِ﴾ ◆ ————— ◆ ﴿١١٨﴾ ◆

٥٨- النُّكْتُ في إعجاز القرآن [ضمن كتاب «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن»]، أبو سليمان حَمْد بن محمد الخطَّابي البُسْتِي، ت: محمد خلف الله ومحمد سلام، دار المعارف، ط: ١٠، ٢٠١٩م.

٥٩- الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية، حسين بن أحمد المرصفي، عُنِي به: محمد الأهدل، طبعة خاصة للأزهر الشريف، سقيفة الصفا العلمية بماليزيا، ط: ١، ١٤٤٠هـ = ٢٠١٩م.



## فَهْرِسْتُ الْمَحْتَوِيَّاتِ



٥.....	تقديم الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء.....
٧.....	ترجمة فضيلة الأستاذ الدكتور / محمد محمد أبو موسى.....
١٣.....	ترجمة أبي العباس المبرد.....
١٧.....	كتاب «الكامل».....
٢١.....	مقدمة فضيلة الأستاذ الدكتور / محمد محمد أبو موسى.....
٢٩.....	«الكامل» في تاريخ البلاغة.....
٣٥.....	رموز عبد القاهر وشروح التلخيص.....
٣٨.....	مواطن التجويد في الشعر هي الفنون البلاغية.....
٣٩.....	ما يدور حوله كتاب «الكامل».....
٤٢.....	علوم العرب في شعرها.....
٤٣.....	المهم جودة الكلام وليس المتكلم.....
٤٦.....	خطأ تعليم اللغة وهي مُفرَّغة من مضامينها.....
٤٨.....	التشبيه في كتاب «الكامل».....
٤٩.....	المُبرد صنو الجاحظ.....

❖	❖	﴿ ١٢٠ ﴾	❖
❖	❖	﴿ الْمَسْكُونَةُ عَنِهَا فِي كِتَابِ الْإِسْلَامِ ﴾	❖
٥٠	.....	حفاوة المُبرّد بامرئ القيس	
٥١	.....	طرائق الفُصحاء وطرائق المؤلّدين	
٥٣	.....	عبد القاهر يشرح رموز المُبرّد	
٥٤	.....	عناية المُبرّد بالتشبيه الممتدّ	
٥٩	.....	عناية المُبرّد بتشبيه يَدَي النّاقة	
٦٩	.....	سياق تشبيه أعمال الذين كفروا	
٧٢	.....	سياق تشبيه الذين اشتروا الضلالة بالهدى	
٧٦	.....	سياق تشبيه سورة «النّور»	
٩١	.....	نَوْحُ الحَمَام	
٩٧	.....	شِعْرُ المُحدّثين	
٩٧	.....	شِعْرُ المُحدّثين	
١٠٢	.....	الأخذ والزيادة	
١٠٤	.....	المُبرّد وأبو نُوَاس	
١١١	.....	المصادر والمراجع	
١١٩	.....	فهرس المحتويات	